



عباس محمود العقاد

# الصدّيقة بنت الصّديق



N  
29



الصديقة بنت الصديق



عبّاسٌ محمود العقاد

# الصّديقة بنت الصّديق

الطبعة الثانية عشرة



دار المعارف



## المرأة العربية

كانت نظرة العرب إلى المرأة نظرةً طبيعية مرتجلة .

«ويعنى بالنظرة الطبيعية المرتجلة أنها النظرة التي لا يشوبها إحساس دخيل من وهم العقائد أو حكم التشريع ، ولكنها تمضي على الفطرة التي توحىها ضرورة الساعة أو ضرورة البيئة ، وتختلف على حسب اختلاف هذه الضروريات . فالعرب لم يضربوا اللعنة قط على المرأة في جاهليتهم الأولى ، لأن اللعنة التي ضربت على المرأة في القرون الأولى ، وامتدت إلى القرون الوسطى ، إنما جاءت من الإيمان بالخطيئة التي انحدرت بآدم وحواء من نعيم الفردوس ، وأصبحت للمرأة ملعونةً موصومةً بالنجاسة والشر عند بعض الناس ، لأنهم ألقوا عليها تبعة الشهوات التي تثيرها فيهم وجعلوها حيلةً للشيطان ، مذ كانوا يحسّون بغوايته الخفية كلما أحسّوا بغواية الشهوة الحيوانية ، ومناطها المرأة قبل غيرها من هذه الأحياء .

فالعرب لم ينظروا قط إلى المرأة هذه النظرة ، ولم يحكموا عليها قط بالنجاسة والأصالة في الشر والخباثة ، لأنهم لم يعرفوا الخطيئة بهذا المعنى في عهد الجاهلية .

كذلك لم يعرفوا التشريع الموضوع الذي يحكم عليها بالاستعباد والخطئة

المتفق عليها في المنزلة الاجتماعية ، وإنما عُرف هذا وأشباهه عند الرومان قبل الإيمان بالخطيئة وقبل الإيمان بالدين ، لأنهم كانوا أصحاب مُلكٍ عريض لا غنى لهم فيه عن ترتيب الحقوق والمعاملات بين أبناء المجتمع وبناته كافة ، فلما رُتبوا هذه الحقوق نظروا إلى المرأة في زمانهم نظرهم إلى كل ضعيف تابع لغيره . ولم يلاحظوا في ذلك عتًا خاصًا بها ولا ضغينة « جنسية » موجهة إليها دون غيرها ، لأنهم نظروا هذه النظرة بعينها إلى أبنائهم الصغار وإلى القاصرين منهم على الإجمال فعاملوهم معاملة الضعفاء ، وأعطوهم من الحقوق ما يعطاه الضعفاء ، وهم مع ذلك في عزّة الأقارب والأبناء .

هذه النظرة أيضًا لم يعرفها العرب في جاهليتهم الأولى ، لأنهم لم يضطروا إلى وضع تشريع كامل لدولة كاملة . ولكنهم تركوا أنفسهم على سجيته كما تختلف بها عاداتها ومأثوراتها . وارتجلوا معاملة المرأة ارتجالًا كما تدعوهم إلى ذلك ضرورة البيئة أو ضرورة اللحمية الحاضرة . فربما عاملوها معاملة الرقيق المستضعف في بعض الأحيان ، وربما نسبوا إليها الأبناء دون الآباء من الرجال في أحيان أخرى .

والمرجع في كل أولئك إلى أحوال المعيشة العامة في الجزيرة العربية . وخلاصتها السريعة أنها أحوال نزاع شديد على المرعى وموارد الماء ، لقلة المرعى والماء وكثرة طلاب هذا وذاك .

وهذا النزاع الشديد يجعل القدرة على « حياة الدمار » مقدمة على كل قدرة ، لأنها مسألة تتعلق بها الحياة والبقاء .

وهو كذلك خليف أن يجعل المرأة في بعض الأحوال كلاً ثقيلاً على عواقب ذواتها ، لأنها تستنفد القوت ولا تشترك في حمايته والدؤد عنه .



وهذا الذى يفسر لنا كثيراً من النقائض العجيبة فى الآداب العربية .  
لأنها - عند الرجوع بها إلى أسبابها - لا تحسب من النقائض ولا تزال متشابهة  
متقاربة فى الأصول .

فمن ذلك مثلاً أن الحرب نَشِيت بين بنى بكر وبنى تغلب أربعين سنة ، لأن  
البُسُوسَ ابنة منقذ أضافت رجلاً ، ففُضِرَ كَلْبُ ناقة ذلك الرجل ، وهو فى  
ضيافة البسوس ، فأقسم ابن أختها جَسَّاسَ لها « لِيُقْتَلَنَّ غَدًا جَمَلٌ هُوَ أَعْظَمُ  
عَقْرًا مِنْ نَاقَةِ جَارِكَ » ، وَقَتَلَ كَلْبِيًّا سَيِّدَ بَنِي تَغْلِبَ فى ثَأْرِ تِلْكَ النَاقَةِ ، أو من  
أجل كرامة امرأة فى ناقة جارها .

وإلى جانب ذلك يعلم القارئ أن قبائل من العرب كانت تدفن بناتها فى  
طفولتها فراراً من عارها أو إشفاقاً من نفقتها .  
ويلوح أنهما نقيضان لا يلتقيان .

والواقع أنهما غير نقيضين ، وأن البيئة التى تدعو إلى إحدى الخصلتين  
حقيقة أن تدعو إلى الأخرى .

فإن آداب الحماية تجعل المرأة أحقَّ شىء بأن يُحْمَى وأن يُغَارَ عليه الحُجَّة ،  
لأنها أَمْسُّ بِالرَّجُلِ مِنْ أَرْضِ الْمَرْعى وَمِنْ مَاءِ الْبَثْرِ مِنَ الْجَمَلِ وَالنَّاقَةِ ، فمن فَرَطَ  
فِيهَا فَمَا هُوَ بِقَادِرٍ عَلَى حِمَايَةِ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ .

ومن هنا فَرَطَ الْغِيْرَةُ عَلَى الْعَرَضِ وَإِثَارَ الْمَوْتِ لِلْبَيْتِ عَلَى الْعَارِ .  
وإذا رجعنا إلى الأصل فى « آداب الحماية » وهو النزاع الشديد الذى أوجبه  
شَحُّ الْأَرْضِ بِالرِّىِّ وَالطَّعَامِ ، فالحاجة إلى القوت خليقة أن تغرى بالقسوة  
المهينة ، وأن تَوْسُوسَ لِلْمَعُوْزِينَ فى سنوات الضيق بالتخلُّصِ مِنْ يَسْتَنْفِدِ الْقَوْتَ  
ولا يعين على تحصيله أو الذود عن موارده ، ونعنى بين البنات الزائدات على

حاجة القبيلة في تلك السنوات .

وربما ظن بعضهم أن الوأد كله من مخافة العار ، كما قال البحرى وهو يعزى

بنى حميد ذلك العزاء العجيب عن فقد فتاة :

أَتَبْكِي مَنْ لَا يُنَازِلُ بِالسَّيْفِ مَشِيحًا وَلَا يَهْزُ اللَّوَاءُ

وَيَنْخَمُ عَزَاءَهُ بِقَوْلِهِ :

وَلَعَمْرِي مَا الْعَجْزُ عِنْدِي إِلَّا أَنَّ تَبَيْتَ الرِّجَالَ تَبْكِي النِّسَاءُ

فقد قال في تلك القصيدة :

لَمْ يَنْدُ كَثْرُهُنَّ تَمِيمٍ عَيْلَةً بَلْ حَمِيَّةٌ وَآيَاءُ

يشير إلى قيس بن عاصم سيد بنى تميم الذى أقسم ليثدن كل بنت ولدت

له ، لأن ابنته اختارت صاحبها الذى سبها على العودة إلى أهلها . فكلام

البحرى إن صدق فإنما يصدق على قيس وأمثاله . ولكنه لا ينفي أن العرب وجد

فيهم من يئد البنات عَيْلَةً - أى إشفاقاً من النفقة - كما وجد فيهم من يئد البنات

أنفة من العار . وآية ذلك أن صعصعة بن ناجية كان يشتري البنات من آبائهن

ليستحيين ، فيقبلون ذلك ويبيعونهن راضين عن بيعهن ، حتى قيل إنه افتدى

ثمانين ومائتي وليدة بالشراء . ولو كان آباؤهن يئدونهن خشية العار وحده لما أغنى

عنهم إقصاؤهن وهن فيه قيد الحياة ، ولحق بهم في بيعهن عار لا يقبله من يأنف

من العار .

والقرآن الكريم يقول : ( وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ) .

ونخرج من هذا جميعه بأن هذه النقائص الظاهرة مصدرها واحد ، وهو

التزاع على الرزق ، وما أوجبه من تقديس فضائل الحماية والدفاع عن الحرمات .

فهذا المصدر يفسر لنا وأد البنات خشية الإملاق ، كما يفسر لنا وأدهن خشية

العار ، ويفسر لنا احتقار البكاء على المرأة ، كما يفسر لنا إعزاز جوارها حتى  
لتنشب الحرب أربعين سنة غضباً من إصابة ناقة في جوار نخالة رئيس ، ويرجع  
كله إلى نظرة طبيعية تجرى مع الحوادث في مجراها ، فلا يشوبها وهم من عقيدة  
دينية ، ولا يخالطها قيد من أحكام التشريع .

\* \* \*

ومن لوازم هذا التراع الشديد في مظهر آخر من مظاهر البادية العربية أنه  
جعل المرأة عاملة نافعة في حياة الأسرة وحياة القبيلة ، لأن المعيشة الضنك التي  
كان يعيشها البدوى في صحرائه المجردة تأتي عليه الترف والبذخ ، ولا تتسع  
لإسراف المذنى الذى ينفق ما ينفق على المرأة ، ولا أرب له عندها غير المتعة  
والمسرة ، ولا عمل لها عنده غير الراحة والزينة ، فكانت المرأة العربية - في  
البادية خاصة - تعمل كل ما تستطيع أن تعمله لخدمة أسرتها وقبيلتها ، وتعمل كل  
ما تستطيع أن تعمله لإتقان عملها وتجويد خدمتها . فكانت ترقى الإبل  
والشاء ، وتمخض اللبن ، وتغزل الصوف ، وتصنع الخيام ، وتضمد الجراح ،  
وتطب لنفسها في شئون الحمل والولادة ، وتحقق من هذه الشئون ما تجهله المرأة  
الحضرية في كثير من أمم العصر الحديث ، وتعينها على ذلك حاجتها إلى تطبيب  
نفسها وقيامها على رعى الأحياء التي تلازمها في غدوها ورواحها وفي حصنها  
ومرضها وفي حملها وولادتها وفي اختيار الأصلح والأجدى لنسلها ونتاجها .  
وقد رُويت عن نساء العرب صفات أخرى للحمل والرضاعة تشبه هذه  
الصفة في جملة معناها ، وهى صفات لا يشترط أن تطابق العلم الحديث في  
جميع تحليلاته وتفصيلاته ، بل حسبها على سداجتها أن تدل على طب معروف  
في علاج الحمل والولادة والرضاع ، وأن الأمر في هذه الشئون لم يكن عند

المرأة العربية هملاً متروكاً للمصادفات ، كما يشاهد ذلك في بيئة الكثير من الحضريات المعاصرات .

\*\*\*

إلا أن الشظف الذي كان يعمّ الجزيرة العربية ويذكرى فيها ذلك النزاع الشديد على الرزق لم يكن خلواً من الجوانب التي يرق فيها ويلطف وتسرى منها الرقة واللطف إلى العلاقة بين الرجال والنساء فتتعم المرأة بالرفق الذي يرفع من مكانتها ويهذب من معاملتها في سائر البيئات الإنسانية لا في الجزيرة العربية وحدها .

وأهم هذه الجوانب جانب النشأة في بيئة الحضارة ، وجانب النشأة في بيئة السيادة ، فالحضارة تصقل الطباع وتهذب حواشي النفوس وتغنى القبائل عن القتال وعن ثورة الغضب للدمار المهديد بالليل والنهار ، وأول ما يظهر هذا الصقل والتهذيب في العلاقة بين الرجل والمرأة ، لأنها العلاقة التي تمتحن بها الكياسة وآداب الخطاب .

والسيادة تعلم السادة أن يعنوا بمكان بناتهم من العزة والرخاء . فلا يسلمونهن لمن ينزل بهن عن منزلة العقائل الميجلات اللواتي يغنين في بيوتهن عن الخدمة المسفة والعيش الذليل .

ولهذا كان سادة العرب يختارون الأزواج لبناتهم ثم لا يكتفون باختيارهم حتى يشركوهن في الرأي ويدخلوهن في المشورة ، ومن أنباء ذلك التي استفاضت في الأدب العربي أن الحارث بن عوف المريّ قدم على أوس بن حارثة الطائي مخاطباً ، فدخل أوس على زوجته ودعا بيته الكبرى فقال لها : يا بنية ! هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب قد جاءني طالباً مخاطباً .

وقد أردت أن أزوّجك منه فما نقولين؟ قالت : لا تفعل . قال : ولم؟ قالت :  
لأنى امرأة فى وجهى ردّة ، وفى خلُقى بعض العُهدّة ، ولست بابتة عمه فيرعى  
رحمى وليس يحارك فى البلد فيستحى منك ، ولا آمن أن يرى منى ما يكره  
فيطلقنى فيكون على وعليك من ذلك ما فيه .

فصرفها ودعا بابتة الوسطى ، وعرض عليها ما عرضه على الكبرى ،  
فقالت : إنى خرقاء ، وليست بيدى صناعة ، ولا آمن أن يرى منى ما يكره  
فيطلقنى !

فلما دعا بأختها الصغرى قالت : « . . ولكننى والله الجميلة وجهًا ،  
الصّناع يدًا ، الرفيعة خلُقًا ، الحسبية أبا ، فإن طلقنى فلا أخلف الله عليه  
بخير ! » .

وهذه الفتاة الصغرى - واسمها بُهَيْسَة - هى التى تزوجها الحارث وزُفّت  
إليه ، فأنكرت منه أن يدخل عليها فى ثياب العرس والحرب قائمة بين عبس  
وذبيان ، فلا يشغله عن الطيب والزفاف أن يصلح بينهما . . فأكبر منها زوجها  
هذه الحكمة ، وسعى فى الصلح بين الحيين حتى استجيب إليه .

ومن جاءت الأنباء على اختلاف الروايات باستشارتهن فى الزواج هند بنت  
عتبة أم معاوية بن أبى سفيان . وقد خطبها سيدان من قومها ، فاستخبرت أباهما  
عنهما فقال يصفهما : « أما أحدهما فى ثروة وسعة من العيش ، إن تابعته  
تابعك ، وإن ملّت عنه حطّ إليك ، تحمّكين عليه فى أهله وماله . وأما الآخر  
فوسّع عليه ، منظور إليه فى الحسب الحسيب والرأى الأريب ، مدرةً أرومته  
وعزّ عشيرته ، شديد الغيرة لا ينام على ضعة ، ولا يرفع عصاه عن أهله » .  
فقالت : « ياأبت ! الأول سيد مضياع للحرّة ، فناعست أن تلين بعد

إبائها ، وتضيق تحت جناحه إذا تابعها بعلمها فأشرفت وخافها أهلها فأمنت ؟ ساء عند ذلك حالها وقبح عند ذلك دلالها . فإن جاءت بولدٍ أحقت ، وإن أنجبت فمن خطأ ما أنجبت ، فاطورٍ ذكر هذا عني ولا تسمه عليّ بعد ! وأما الآخر فبعل الفتاة الخريذة الحرّة العقيلة . وإني لأخلاق مثل هذا لموافقة . فزوجنيه . ويلوح من تكرار هذه الأنباء أن استشارة البنات في أمر زواجهن كان سنة من السنن المرعية بين سادات العرب لا يشذ عنها إلا القليل .

\* \* \*

ومن البداية أن هذه العادات والآداب التي تنشأ من بيئة الوطن ومناخه تعم الأمة برمتها ولا يقع فيها التفاوت إلا ما لا بد منه بين فرد وفرد ، أو بين طبقة وطبقة ، على المثال الذي قدمناه .

بيد أنك قد ترى في الأمة طائفة من عليتها أوبيتاً من بيوتها يخيل إليك أنهم خصّوا من دونها بصفوة هذه الآداب ونقاوة هذه العادات . أو يخيل إليك أن آداب الأمة كلها إنما كانت تحضيراً مقصوداً لهذه الطائفة أو لهذا البيت ، يأخذون منه بالخلاصة المصفاة واللباب المختار . فإذا صح هذا الوصف في قبيلة من قبائل العرب فهو أصح ما يكون في قبيلة بني تميم ، ثم في بيت أبي بكر الصديق الذي كان في موضع الذؤابة من هذه القبيلة .

فقد اجتمعت لبني تميم خلاصة الآداب التي نجمت من فرائض الحماية والذود عن الذمار ، ثم تناولتها بالصقل والتهذيب بيئة السيادة وبيئة الحضارة . وكان بيت الصديق على التخصيص مثلاً في هذه الآداب جميعها يحتذى به بين الحواضر العربية ؛ لأن سيادة هذا البيت لم تكن سيادة طغيان وقتال ،

ولكنها كانت سيادة شرف وأمانة ، وكانت حصته في الجاهلية من مقاوم الشرف  
حصّة الوفاء بالمغارم وضمان الديون ، وعمله الأكبر في الجاهلية يدور على  
التجارة ومعاملة الناس ، ولا يدور على البأس والإكراه .

فنشأ البيت كله على الرفق والدمائة ورقة الحاشية ، واشتهر بتدليل نسائه  
وبناته حتى قيل - كما جاء في الأغاني - إنهن كنَّ أُحْطَى خلق الله عند  
أزواجهن . وكانت عند الحسين بن علي رضوان الله عليهما أم إسحاق بنت  
طلحة ، فكان يقول : « والله لربما حملت ووضعت وهي مصارمة لي  
لا تكلمني » .

وندر من أبناء الصديق رضي الله عنه من لم يكن مع امرأته شأن يذكر في  
باب الهبة بين الأزواج :

فعبد الله أكبر أولاده بَنَى بعاتكة بنت زيد العدوية ، فهام بها ، وشغل عن  
خاصة أمره وعامته ، حتى نصح له أبوه بطلاقها ، فطلقها وهو كاره ، ثم أدركه  
الندم فنظم فيها القصائد ومنها :

أَعَاتِكُ لَا أَنْسَاكَ مَا ذَرَّ شَارِقُ	وَمَا لَاحَ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ مَحَلَّقُ
أَعَاتِكُ قَلْبِي كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ	نَدِيلِكُ بِنَا تُحْفِي النُّفُوسُ مَعَلَّقُ
وَلَمْ أَرِ مِثْلِي طَلَّقَ الْيَوْمَ مِثْلَهَا	وَلَا مِثْلَهَا فِي غَيْرِ شَيْءٍ تُطَلَّقُ

وأخوه عبد الرحمن نفعه عمر بن الخطاب ليلي ابنة الجودي من حسان  
غسان الموصوفات بالقسامة والجمال فلازمها ولم يفارقها فترة إلا نظم الشعر في  
الحنين إليها ، ومن قوله فيها :

تَذَكَّرْتُ لَيْلِي وَالسَّأْوَةَ بَيْنَنَا	فَمَا لَابَنَةِ الْجُودِيِّ لَيْلِي وَمَا لَنَا
وَأَنِّي نُلَاقِيهَا بَلَى وَلَعَلَّهَا	إِذَا النَّاسُ حَجُّوا قَابِلًا أَنْ تُؤَافِقَا

وأفرط في التعلق بها حتى لامته شقيقته السيدة عائشة رضي الله عنها . ومازالت به حتى جفاها ، فعادت تلومه في جفائها وتقول له : « أفرطت في الأمرين . فإما أن تنصفها ، وإما أن تجهزها إلى أهلها » . فجهزها إلى أهلها . ومن ذرية الصديق « ابن أبي عتيق » صاحب عمر بن أبي ربيعة شاعر الغزل المشهور ، وكان يسمع بالجفاء بينه وبين الثريا ، فركب من مدينة إلى مدينة ليصلح بينها ، ولا يترجل عن مطيته حتى يتم الصلح على ما يرومه . وهو مع هذا كان يتحرج من نزوات عمر ويسأله : ألم تحبني أنك ما أتيت حراماً قط ؟ فيقول : بلى ! فيستخبره عن قوله : وما نلت منها محرماً غير أننا كِلانا من الثوب المورّد لابس ثم لا يتركه حتى يحبيه بما يدفع شكّه ويردّه إلى حسن ظنه .

\* \* \*

فآداب الرجال والنساء في بني تميم كانت مثالا للرعاية التي تظفر بها المرأة العربية في بيئة السيادة وبيئة الحضارة . ولكنها لم تزل عربية في قرارها ، ولم تنقطع عن آداب الأمة التي جعلت عرضها أحقّ شيء بالحماية ، وأقن حصن أن تمنعه وتغار عليه . فكان أبو بكر نفسه مثالا من أمثلة الغيرة بين أهله وقومه ، وقد قال ابن سيرين : كان أغبر هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر . وروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن نفرا من بني هاشم دخلوا على زوجته أسماء بنت عميس ، فكره ادخولهم عليها ، وشكاهم إلى النبي عليه السلام ، فقام على المنبر فقال : لا يدخلن رجل بعد يومي هـ . على مئبة إلا أن يكون معه رجل أو اثنان . ولما شبّ عمر بن أبي ربيعة بعائشة بنت طلحة التيمية تجمّع فتیان تميم



فأنذروه لئن تعرض لها بعد ذلك ليقْتُلَنَّه شر قتلة فأقسم لا عاد .  
وعائشة هي التي كانت تعاتب في كشف وجهها فتقول : « إن الله وسمي  
بمِسْمِ جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لأستره .  
والله ما في وَضْمَةٍ يقدر أن يذكرني بها أحد » .  
فهو دلال لا ينسى الصيانة ، ورفق لا ينسى الغيرة ، وآداب سيادة  
وحضارة لا تنسى الأصول المعروفة في آداب البداوة .  
وفي هذه البيئة التي تحوطها الحمية والرعاية نشأت ربة هذه الدراسة  
وموضوع هذا الكتاب : عائشة بنت الصديق رضي الله عنها .  
ولكنها تفرّدت برعاية لم تشركها فيها ولائد هذه البيئة . فقد تربّت على  
النعمة والخير ، وتدرّبت على العزة والكرامة ، وتعلّمت القراءة التي لم يكن  
يتعلمها من نجباء الأبناء في بيوت السادة إلا القلة المعدودة .  
فصحّ أن يقال : إن الرعاية التي ظفرت بها ربة هذه الدراسة كانت هي  
خلاصة الكرامة التي هيأتها لبناتها حمية البداوة ، وصقلتها مع الزمن شائل  
الحضر ومآثر الشرف والسيادة .

## المرأة المسلمة

- جاء الإسلام فبدأ من النهاية التي انتهت إليها آداب الحضارة والسيادة ، وهي خلاصة العرف الذي تعارف عليه سادة الحضرة في معاملة المرأة العربية إلا أنه جعل هذا العرف حقاً مكتوباً على الرجال لكل امرأة من كل طبقة ، ولم يقصره على عقائل البيوتات ، كما كان مقصوراً عليهن في آداب الجاهلية بحكم الاصطلاح والعادة ، يتبعه من يرضاه ويهمله من أباه . . .
- ثم زاد على هذا العرف منزلة من الرعاية لم تصل إليها أرفع النساء في أرفع البيوتات قبل الدعوة المحمدية ، لأنه جعلها مناط التكليف ، ووجه إليها الخطاب في كل شيء ، كما وجهه إلى الرجال ، إلا ما هو من خصائص عمل الرجال في العرف المستقيم .
- فالمرأة في شريعة الإسلام إنسان مرعى الحقوق والواجبات . . ( ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف . وللرجال عليهن درجة ) .
- وكل امرأة أو فتاة - من العلية أو السوقة - لا يصح زواجها حتى يرجع إليها ، فيه « فلا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا البكر حتى تستأذن » ، وعلامة إذنها السكوت كما جاء في بعض الأحاديث .
- ولها أن تملك ما تشاء ، وأن تبيع وتشتري ما تشاء ، وأن تشترك في الإرث ،

وكان حراماً عليها ، لأنها لا تحمل الدرع ولا تضرب بالسيف . بل كان من حق الرجل أن يتخذها هي ميراثاً ينتقل إليه كرهاً ، كما يرث الخيل والإبل والحطام . فأبطل الإسلام ذلك حيث جاء في القرآن الكريم : ( يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَجْلُ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرَهَا ) .

وقضى بأن تباع النساء كما يبيع الرجال ، فلا تغني عن مبايعتهن مبايعة آباهن وأزواجهن وأوليائهن . ونصّ القرآن الكريم على ذلك حيث جاء في سورة المنتحنة : ( يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ) .

وأبى الإسلام إلا أن يكفل لها حسن المودة كما كفل لها حسن المعاملة وأن يوسع لها من حقوق البر والعطف كما وسع لها من حكم الشريعة . فأوصى المسلمين أن يستقبلوا ولادتها بالرضى ، وزجر الذين يستقبلونها على غيظ وحرد . . ( وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ . أَلَسَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ) .

ومن الآداب القرآنية أن يغالب الرجل كراهتها إذا تغير قلبه عليه من نحوها ، عسى أن يثوب إلى حبها أو يكون في احتمالها خيراً له ولها : ( وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ) .

وكانت وصايا النبي ﷺ على منهاج أوامر القرآن في إنصاف المرأة

ورعايتها ، فكان عليه السلام يقول : « خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِلنِّسَاءِ » . . .  
 و . . . مَا أَكْرَمَ النِّسَاءَ إِلَّا كَرِيمٌ وَلَا أَهَانَهُنَّ إِلَّا لَيْئِمٌ » .  
 وأسند الوصاة بها في بعض الأحاديث إلى وحى جبريل حيث قال .  
 « مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالنِّسَاءِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ يُحَرِّمُ طَلَاقَهُنَّ » .  
 والتعليم الذي كان في بيوت السادة فلتة لا يقاس عليها بين الرجال فضلا  
 عن النساء ، جاء الإسلام فجعل « طلب العلم فريضة على كل مسلم  
 ومسلمة » ، واستحبه عليه السلام حتى للإماء حيث قال : « آيها رجل كانت  
 عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها ، وأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعنتها وترؤسها  
 فله أجران » .

\* \* \*

هذه هي المنزلة التي تبوأها المرأة في الشريعة الإسلامية .  
 وهذه هي المعاملة التي أوجبها آداب الإسلام على المسلمين كافة ، وهي  
 أرفع من كل أدب ترقّت إليه الجاهلية في الجوانب التي تهذبت فيها معاملة المرأة  
 بين ذوى السيادة والحضارة من أهلها ، وأضيفت إليها على عهد الإسلام  
 جوانب شتى لم يكن للمرأة فيها أيسر نصيب من رعاية أو إنصاف .  
 ومهما يكن من رأى في موقف العصور الحديثة من المرأة - وهو ما نعرض  
 له في ختام هذا الكتاب - فالذى لا ريب فيه أن الإسلام قد رفعها درجات  
 فوق أرفع منزلة بين العرب أو بين الأمم الأخرى ، وأن المسلم الذى يعمل بدينه  
 يوليها من البرّ فوق ما طلبته لنفسها ، لو أنها كانت في زمان يطلب فيه النساء  
 لأنفسهن حقاً من الحقوق .

\* \* \*

ولم تكن تلك غاية المرتقى .

فإن الفرائض الدينية تطاع ولا تطاع ، وهى على هذه موكلة بالتعميم الذى يستوى فيه جميع المسلمين المخاطبين بالتكليف . وإنما طاعة التكليف فضيلة تعلوها فضائل الاختيار والرغبة والاشتياق إلى الإنجاز ، كأن الإنجاز هو المثوبة التى تغنى عن المثوبة الموعودة . وها هنا تتفاوت المراتب وتترقى الفضائل من التعميم الشائع إلى الامتياز والرجحان ، وتستبق النفوس حتى يكون العمل المقروض أمنية محبوبة يؤلم النفس أن تعاق دونها ولا تبلغ الغاية منها .

وتلك عليا مراتب الأنبياء .

وهى المرتبة التى سما إليها صاحب الدعوة الإسلامية بما نهياً له من تمام الأريحية الإنسانية وملاك الفطرة النبوية .

فالحق أن محمداً عليه السلام لم يفرض على نفسه الشريفة محاسنة المرأة كما تفرض الأوامر السماوية على من يطيعها ولا مسرة له فى طاعتها ، ولكنه حاسنها فطرة كما حاسن كل مخلوق حتى ولا سبي الضعفاء ، وجعل البر بها مقياس المفاضلة بين أخلاق الرجال وعنوان المنافسة فى طلب الخير والكمال ، فقال غير مرة : « خيركم خيركم للنساء » .

ويبلغ من ذلك أنه يأوى إلى البيت « فيكون فى مهنة أهله ، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة » وأنه استحب خدمة الزوجة فى منزلها فقال « خِدْمَتُكَ رَوْجَتُكَ صَدَقَةٌ » ، وكان أكيس رجل فى معاملة أهل بيته ، يشفق أن يرينه غير باسم فى وجوههن ، ويזורهن جميعاً فى الصباح والمساء ، وإذا خلا بهن « كان ألين الناس ضحاً كاً بساماً » ، كما قالت عائشة رضى الله عنها

ومن المبالغات المألوفة في تناهي الرحمة أن يقال : « إنه أرحم به من أمه وأبيه » .

لكنه عليه السلام كان حقاً أرحم بأهله من آبائهم وأمهاتهم حتى الذين اشتهروا بالحدب الشديد على ذوى الرحم كأبي بكر الصديق رضوان الله عليه .  
ففي الأحاديث عن عائشة أنها قالت : « كان بيني وبين رسول الله ﷺ كلام فقال : من ترضين أن يكون بيني وبينك ؟ أترضين بأبي عبيدة بن الجراح ؟ قلت : لا . ذلك رجل هين لئن يقضى لك . قال : أترضين بأبيك ؟ قلت : نعم فأرسل إلى أبي بكر فجاء ، فقال : اقصصى ! فقلت : بل اقصص أنت . فقال : هي كذا وكذا . . . فقلت : أقصد ! فرفع أبو بكر يده فلطمني وقال : تقولين يابنت أم رومان : أقصد ؟ من يقصد إذا لم يقصد رسول الله ؟ فجعل الدم يسيل من أنفي ، وقال رسول الله ﷺ إنا لم نرُد هذا . . . وجعل يغسل الدم بيده من ثيابي ، ويقول : رأيت كيف أبعدك الله منه . . . » .

وكان برّه بمن مات من أزواجه أكرم من بره بمن يعشن معه ويراهن كل يوم فلما ماتت زوجته الأولى خديجة رضي الله عنها حزن عليها ، وسمى العام الذي قبضت فيه « عام الحزن » ، ووفى لذكرها طوال حياته ، حتى لقد كانت عائشة تغار منها وهي في قبرها أشد من غيرها من زوجاته اللواتي يعشن معها في كنفه ، وقالت له يوماً : هل كانت إلا عجوزاً بذلك الله خيراً منها ؟ فقال لها مغضباً : « لا والله ! ما أبدلني الله خيراً منها . آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بماله إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء » .

وإن هذا الوفاء للذكرى الزوجة الغابرة لخلق أن يرضى المرأة - حين تنسى  
غيرتها - أشد من رضاها عن مكاشفتها بالتفضيل في حياتها لجمالها وشبابها ونعيم  
عشرتها وصفاتها . .

\* \* \*

ونحن لا نعتسف التوفيق والترتيب حين نقول عن ربة هذا الكتاب - عائشة  
بنت الصديق - إنها لوحظت في آداب العرب والإسلام كأنها الوجهة التي  
اتجهت إليها هذه الآداب في طريق الارتقاء والتهديب .  
فن قسمتها في آداب العرب النسائية أنها نشأت في خلاصة تيم الدين اشتهروا  
بظرف الرجال وتدليل النساء .  
ومن قسمتها في الإسلام أنها ملكت حقوق المرأة المسلمة ، وتجاوزتها ،  
فلكت الخطوة التي يضيفها على نسائه نبي كريم ، يتجاوز الحقوق المقررة  
صعداً في معارج الكمال ، وكانت هي بعد هذا صاحبة الخطوة الأولى بين هؤلاء  
النساء .

إنها لمحدودة من بنات حواء .  
ولهذا الجسد السعيد شأن أى شأن في تاريخها الذي اتصل بتاريخ الإسلام .

## المرأة الخالدة

إن المرأة التي اجتمعت لها خلاصة الرعاية في آداب أمة من الأمم لذات شأن في تاريخ قومها لا يسهو عنه باحث موكل بدراسة التاريخ أو دراسة الآداب . وأعظم من ذلك شأن المرأة التي كتبت لها خلاصة الرعاية في دين من الأديان ، والتي اشتهرت في سيرة النبي المرسل بذلك الدين ، ونقلت أحاديثه في أحكام شريعته وخطرات ضميره ، ولقيت عنده الحظوة التي لم تلقها واحدة من النساء

والسيدة عائشة رضي الله عنها هي هذه ، وهي تلك .  
هي المرأة التي لوحظت في آداب الأمة العربية كأنما استخلصت لها هذه الآداب لتظفر منها بالرعاية الأولى :  
وهي المرأة التي قال عنها النبي عليه السلام إنها أحب الناس إليه ، وتلقى الأعقاب عنها مئات الأحاديث التي عرفوه بها في دينه ودنياه .  
وكلاهما شأن عظيم يؤول الإنسان بين قومه مكاناً ملحوظاً من جوانب التاريخ . .

ولكن السيدة عائشة مع هذا وذاك تهّم الباحثين والمؤرخين لسبب آخر غير هذين السببين ، أو للسبب الآخر المتمم لهذين السببين ، لأنها المرأة في تكوينها



الأصيل الذى خلقه الله منذ خلق حواء ، أو هى المرأة التى تتمثل فيها الأنثى الخالدة التى لا تحتويها أمة واحدة ولا يستأثر بها زمان واحد ، لأنها استمدت من طبائع الإنسانية كل ما قدر لها من دوام .

وهذا هو جانب الاهتمام الصميم بكل عظمة وكل عظيم .

فهما يقل القائلون فى غرض المؤرخ من سير العظماء فالحقيقة التى لا ريب فيها عندنا هى أن الغرض الأول ، أو الغرض الذى تنتهى إليه جميع الأغراض وهو توثيق الصلة بين الإنسانية وبين عظائرها وعظيبتها ، والنفاذ إلى الجانب الإنسانى من كل نفس تستحق التثويه والدراسة .

وما من علامة هى أصدق دلالة على السيرة الناجحة من هذه العلامة .  
فنحن نعلم أننا سائرون على الجادة فى التعريف بصاحب السيرة أو صاحبها إذا نظرنا فرأينا أننا قد وصلنا من تلك السيرة إلى صميم الإنسان .  
ونحن نعلم أننا تائهون فى الطريق إذا نظرنا فلم نجد بين أيدينا إلا سرايل العظيمة وأقواس النصر وكواكب الرهبة والخشوع .

نحن إذا فهمنا النبى نبياً وكفى فإنما وصلنا بين ضميره وضائرتنا وبين محراب العبادة عنده ومحراب العبادة عندنا .

ونحن إذا فهمنا البطل بطلاً وكفى فإنما وصلنا بين قدرته وقدرتنا وبين ضخامته بالقياس إلينا وضالتنا بالقياس إليه .

ونحن إذا فهمنا الرئيس رئيساً وكفى فإنما وصلنا بين مركزه فى الأمة ومركزنا ، وبين الحقوق التى له والواجبات التى عليه ، والحقوق التى لنا والواجبات التى علينا .

ولكننا إذا فهمنا النبى إنساناً فقد فهمناه كله ، وفهمناه على حقيقته التى

. تعيننا وتعقد له أواصر القرابة فيما بينه وبيننا ، لأننا وصلنا بين الإنسان فيه والإنسان فينا .

وكذلك البطل ، وكذلك الرئيس ، وكذلك كل ذى شأن يستحق البحث فيه .

هم غرباء حتى يقال : هذا هو الإنسان ! فإذا هم الأقربون الذين ترضينا عظمتهم ، لأنهم منا ونحن منهم ، ولأنهم خالدون خلود الإنسان من وراء الأقاليم والأزمان .

والسيدة عائشة رضى الله عنها مثل من أمثلة الأنوثة الخالدة في جميع أقاليمها وجميع عصورها .

فضلها في الكتابة عنها أنها كتابة عن تلك الأنوثة التي نلمحها حولنا ونلمحها من قبلنا في كل أنثى .

وأنها ترينا النبي في بيته ، فترينا الرجل الذي ارتفع بالنبوة إلى علو مراتب الإنسانية ولكنه مع هذا هو الرجل في بيته ، كما يكون الرجال بين النساء على سنة الفطرة المعهودة من آدم وحواء .

وفضلها على الجملة أنك تقرأ من أخبارها ماتقرأ ، فلا تزال تقول بعد كل خبر ترويه أو يرويه غيرها : أجل هذه هي الأنثى الخالدة في كل سمة من سماتها . هذه هي الأنثى الخالدة في غيرتها ، وهذه هي الأنثى الخالدة في دلالها ، وهذه هي الأنثى الخالدة في كل ما عرفت به الأنثى من حب الزينة وحب التدليل والتصغير وحب التطلع وحب المكايدة والمناوشة ، ومكائمة الشعور والتعريض بالقول وهي قادرة على التصريح .

وكل لون من ألوان الغيرة التي تتراءى في طبيعة المرأة فهو باد في خبر من

أخبار السيدة عائشة ، كأوضح ما يبدو وأصدق ما يكون في طبائع النساء .  
والغيرة في طبائع النساء ألوان .

تغار المرأة على قلب الرجل الذى تحبه ولو شغلته الذكرى ولم تشغله المودة  
الحاضرة ، لأنها تعلم من هذا أنها لم تشغل قلبه كله ، وهى تأسى على كل  
ما يفوتها شواغل ذلك القلب ، ولو لم تكن ثمة منافسة محذورة .

وتغار المرأة من المرأة الجميلة وإن لم تنافسها على رجل تحبه ، وتغار من  
شريكتها في رجلها كائنًا ما كان حظها من الجمال ؛ وتغار من كل مزينة غير الجمال  
ما كان فيها سبيل إلى الخطوة في القلب الذى تريده لها ولا تطيق المزاحمة عليه .  
وه الأئنى الغبرى » في جميع هذه الألوان من الغيرة النسائية ماثلة هنالك  
في سيرة عائشة كما روتها هى وكما رواها غيرها ، ما من فارق بينها وبين سائر  
النساء إلا الأدب الذى ينبغى لها والحق النبوى الذى هى جاهدة جهدها أن  
توفره وترعاه .

كانت السيدة خديجة متوفاة منذ سنوات يوم بئى النبى بالسيدة عائشة .  
ولكن السيدة عائشة كانت تغار منها غيرة لم تنطو على مثلها لشريكاتها  
اللواتى يعشن معها ، لأنها شغلت قلب النبى بعد وفاتها فلم يزل يذكرها ويحب  
لحبها من كان يزورها أو يراها !

وكان عليه السلام يبرّ بعض العجائز ، فسأته السيدة عائشة في ذلك ،  
فقال : إن خديجة أوصتنى بها . . فقالت مغضبة . خديجة . . خديجة . . لكأنما  
ليس في الأرض امرأة إلا خديجة .

وعلى حلم رسول الله ربما غضب أحيانًا من ثورتها على ذكرى خديجة ،  
فغضب في هذه المرة وتركها فترة ثم عاد وأمها - أم رومان - عندها فقالت له

أمها : يا رسول الله ! مالك ولعائشة ؟ إنها حديثة السن ، وأنت أحق من يتجاوز عنها . فلم يدعها حتى أخذ بشدقها معاتباً وهو يقول لها : ألسنت القائلة : كأنما ليس على وجه الأرض امرأة إلا خديجة !

وسأله مرة : ماتذكر من عجوز حمراء الشدقين قد بذلك الله خيراً منها ؟ فأسكتها قائلاً : « والله ما أبدلني الله خيراً منها . آمنت بي حين كذبني الناس ، وواسني بما لها حين حرمني الناس ، ورزقني منها الولد وحُرمتُه من غيرها » . أما شريكاتها اللواتي كنَّ يعايشنها في بيت النبي فربما كانت تغار من إحداهن لطعام يستطيه النبي عندها فضلاً عن الغيرة من الجمال أو الملاحاة .

تعود عليه السلام أن يستطيب العسل الذي تهيئه له زينب بنت جحش من أجمل أمهات المؤمنين وأحظاهن عنده . فأجمعت رأيها مع صديقتها حفصة بنت عمر أن ييغضاه في عسلها ، وقالت فيما روته عن نفسها : « . . . فتواطأت أنا وحفصة أيتنا دخل عليها فلتقل له : أأكلت مغافير ؟ وهي طعام من صمغ حلوى ، ولكنه كريه الرائحة ، ولم يكن أبغض إلى النبي عليه السلام من رائحة كريمة : . فلما دخل عندها رسول الله قالت : إني أجِد منك ريح مغافير . قال : لا ؛ ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ، فلن أعود إليه » ! . وقد عرفت زميلتها السيدة صفية بجودة الطهي ، وهي في الأصل إسرائيلية من أهل خيبر ، فتَنَصَّت عليها السيدة عائشة هذه الإجادة ولم تكتم منها بل هي التي روتها ، ومن حديثها عنها عرفناها . قالت : « ما رأيت صانعة طعام مثل صفية . صنعت لرسول الله طعاماً وهو في بيتي فأخذني أفكل - أي قشعريرة - فارتعدت من شدة الغيرة ، فكسرت الإناء ثم ندمت فقلت : يا رسول الله ما كفارة ما صنعت ؟ قال : إناء مثل إناء وطعام مثل طعام » .

وهذه غيرتها من زميلات لم يجهن بالمنافسة والمغايرة وهي بالبداية دون غيرتها من الزميلات اللواتي كن ينافسها جبهة ويكاشفن النبي عليه السلام بالشكوى من تفضيلها عليهن في المودة والخطوة ، وعلى رأسهن أم سلمة التي شهدت على نفسها والنبي بخطيها أنها غير ولا تطيق المنافسة ، فكان عليه السلام يجاملها ليذهب غيرتها ، وتغضب عائشة من هذه المجاملة على علمها بمكانتها عنده ، قالت :

دخل عليّ يوماً رسول الله ﷺ فقلت :

أين كنت منذ اليوم ؟

قال : يا حمراء ، كنت عند أم سلمة .

قلت : ما تشيع من أم سلمة ؟

فتبسم . ثم قالت : يا رسول الله ألا تخبرني عنك لو أنك نزلت بعدوتين

أحدهما لم ترع والأخرى قد رعيت أيهما كنت ترعى ؟

قال : التي ترع !

قلت : فأنا ليس كأحد من نسائك . كل امرأة من نسائك قد كانت عند

رجل ، غيري . . .

فتبسم عليه السلام .

وإذا كانت أكلة أو شرية غسل تستطاب عند إحدى الزميلات ، أو مجاملة

لأحدها من حبراً لحاظ ومداواة لغيرة - تثير هذه المنافسة وتغري بهذه المؤامرة

فليس من العسير أن نفهم كيف تكون الغيرة التي تثيرها الذرية المحبوبة المرقوبة

حين يرزقها النبي من إحدى زوجاته وقد حرّمها من سائرهن سنوات ، وهو

شديد الكلف بها والتطلع إليها :

تلك إذن غيرة لا تمسكها الحدود ولا تكبحها المحاملات .  
وقد ثارت ثائرتها يوم ولد له عليه السلام ابنه إبراهيم من مارية القبطية ،  
وكانت على هذه المزية التي امتازت بها جميلة بيضاء ، تغار منها الزميلة لحملها  
وصباحتها فوق غيرتها منها لهذه الأمومة التي تفردت بها بين تسع نظيرات .  
قالت كتب السير : وغارت زوجات النبي ولا كعائشة .

لأن عائشة رضى الله عنها كانت صاحبة اللكافة الأولى التي ترفعت إليها  
« مارية » بأمومتها ، فهي أحق بالغيرة على تلك المكانة من سواها .  
ولا ريب في حب عائشة للنبي ، ولا في سرورها ورضاها بما يسره  
ويرضيه . ولكننا نطالب الطبيعة الإنسانية - والطبيعة النسوية - بما يرهقها إذا  
نحن ترقبنا منها أن تسر بما يشير غيرتها ، وأن تحب الرجل ثم تسر بما عسى أن  
يصرف حيا عنه ، أو ينقص سهمها فيه .

فمن الطبيعي أن تسر المرأة بسرور الرجل لأنها تحبه .  
ومن الطبيعي كذلك أن تغار من السرور الذي يحبه إلى غيرها ، لأنها تحبه .  
وقد يفترق القلبان في لحظة من اللحظات ، لأنها مقتربان أشد اقتراب .  
وهذا الذي حدث عند مولد إبراهيم من مارية القبطية ، وهي فتية جميلة  
رضية ، يدينها من قلب النبي شتى المزاي ، وأولاها هذه المزية التي تربي على كل  
مزية .

فلما رأت عائشة فرح النبي بالوليد المرموق ، وأحسست شغف النبي به  
جاهدت نفسها أن تغالب غيرتها فلم تقو على هذه المغالبة ، وقال لها يوماً :  
انظري إلى شبهه ! فلم تملك لسانها أن تقول : ما أرى شيئاً . . وربما أعجبه نمو  
الوليد ، ولقتها إلى بياضه ولحمه وترعرع جسمه ، فيعز عليها أن تعجب مثل

عجبه ، لأنه هكذا ، كل طفل يشرب من اللبن ما يشرب إبراهيم !  
 وكان غضب النبي من غيرتها تأديب وتهذيب ، لا غضب سخط وتأنيب  
 فكان يعذرها فيما يمس ، ولا يعذرها فيما ينبغي له أن تتوخاه أو تتحراه ،  
 أو فيما يحسن بالمرأة التي أحبها هذا الحب أن تقلع عنه وتعرف موضع الملامة  
 فيه .

فقلنا لامها في شيء يمس من غيرتها .

ولكنه كان لا يسكت مرة عن مؤاخذتها على فلتات هذه الغيرة التي تمس أناساً  
 آخرين . فيؤاخذ مؤاخذة المؤدب الرفيق ، ولا يدع لها أن تعيد ما أخذها عليه .  
 عابت أمامه زوجته السيدة صفية ، فذكرت من عيوبها أنها قصيرة فكرة أن  
 تمضي في حديثها وقال : « يا عائشة ! لقد قلت كلمة لو مُرِجَتْ بماء البحر  
 لَمُرِجَتْهُ » .

وحكت أمامه إنساناً فلم يعجبه ما يعجب الزوج المحب من هذه الفكاهة  
 التي تسوغ وتستملح في ذوق كثيرين ، ونهاها أن تحكى الناس حكاية استهزاء .

\* \* \*

ومن « الأنثويات » الخالدة في طبيعة المرأة دلالها ومغاضبتها وهي أشوق  
 ما تكون إلى المصالحة وتقصير أمد المغاضبة .

وللسيدة عائشة نواذر شتى في هذا الدلال الذي شابهت به كرائم قومها  
 وزادت عليهن بما بلغته من المتزلة التي لم يبلغنها .

غضب النبي من نسائه لكثرة منازعاتهن وإلخافهن عليه بطلب المزيد من  
 النفقة والزينة ، فأقسم ليهجزهن شهراً ، وشاع بين المسلمين أنه طلقهن جميعاً .  
 وكان لهذه الإشاعة بين المسلمين رجة أي رجة ، لأن تطليق النبي زوجاته

جميعاً هو أكبر طارق يتعرض له عليه السلام في بيته ، ويمتد أثره إلى القبائل والبيوت التي كانت تجمعها صلة المصاهرة . وفي وسعنا أن نتخيل تلك الرجّة بين الصحابة إذا علمنا أن صاحباً لعمر بن الخطاب سمع بالنبأ ليلاً فأسرع إلى بابه يدقّه دقّاً شديداً ويسأل عنه في فزع : أئنم هو؟ فلما خرج إليه قال صاحبه : حدث أمر عظيم . قال عمر : ما هو؟ أ جاءت غسان؟ قال : لا . بل أعظم منه وأطول ، طلق النبي ﷺ نساءه .

ثم تحرى عمر الخبر من رسول الله فعلم أن الأمر دون ذلك ، وأن رسول الله إنما أقسم ليخرجهن شهراً . فالبث أن استأذنه عليه السلام ليبادر إلى المسلمين المجتمعين بالمسجد فينقل إليهم حقيقة النبأ ، ويذهب عنهم ما خامرهم من الأسى بما بلغهم من طلاق نساؤه .

ولا ريب أن نساء النبي أنفسهن كانت يئبن للنبأ رجّة أشد عليهن من هذه الرجّة ، وكان لهذه العقوبة التي لم يعاقبن بمثلها من قبل أثر في قلوبهن أبلغ من هذا الأثر .

فلما انقضت الأيام التي أوعدن بها بدأ بالسيدة عائشة فدخل عليها وهي أشوق ما تكون إلى لقائه . فإذا سمع منها أول ما سمع ؟ قالت : يا رسول الله أقسمت أن لن تدخل علينا شهراً وقد دخلت وقد مضى تسعة وعشرون يوماً !

فقال عليه السلام : إن الشهر تسعة وعشرون . أتراها كانت تنتظر استيفاء الثلاثين ولا تقنع بالهجر تسعة وعشرين يوماً ؟ كلا . فقد عدتهن يوماً يوماً وعلمت ساعة دخول النبي كم مضى وكم بقي على ظنها في من أيام العقوبة . ولكنها الأنثى الخالدة كما أسلفنا ، ولا بد للأنثى



الخالدة في هذا الموقف من مكاتمة ، ولا بد لها من دلال .

\* \* \*

وما من سمة في الأنوثة الخالدة غير هذه السمات إلا وجدت في السيدة عائشة ، وقد صدقت فطرتها فيها ، وإن كانت لتروض نفسها تلك الرياضة العالية التي تحمل بزوجة محمد ﷺ وبنت الصديق وأم المؤمنين . فإذا عرضت مناسبة للسن فليس أحب إليها من أن تقول : وكنت جارية حديثة السن ، أو حدث ذلك للجهلى وصغر سنى ، وربما راقها أن تختار من الروايات التي ذكروها لها عن سنها أقرب تلك الروايات إلى التصغير وأولاهها أن تميزها بين زميلاتنا بميزة الشباب .

وقد تكون وحدها في بيتها فتعجبها ثيابها وتحب أن تنظر إليها . قالت : « ولبت ثيابي فطفقت أنظر إلى ذيلي وأنا أمشي في البيت وألثفت إلى ثيابي وذيلي . فدخل على أبو بكر فقال : يا عائشة ! أما تعلمين أن الله لا ينظر إليك الآن ؟ قلت : ولم ذاك ؟ قال : أما علمت أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا مَقَّتْه ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة ؟ فترَعَتْه فتصدَّقت به ، قال أبو بكر : عسى ذلك أن يكفر عنك » .

وهي عائشة كاملة في هذه القصة الصغيرة ، هي حواء التي تحب أن تنظر إلى زينتها ، وهي أم المؤمنين التي تحب أن ينظر الله إليها ، وهي هنا أيضًا حواء تطمح إلى زينة أعلى وأعلى .

\* \* \*

ولن تعوزنا أسباب الاهتمام بحياة كهذه الحياة ، لأنها المرأة العربية ، والمرأة المسلمة ، والمرأة الخالدة في كل زمان .

## عائشة

ولدت عائشة لأبي بكر الصديق من زوجته « أم رومان » واسمها زينب أو دعد ، مختلف فيه ، كما اختلفوا في نسبها ، واتفقوا على أنها من كنانة . وكانت قبل بناء الصديق بها زوجًا لصاحبه في الجاهلية عبد الله بن الحارث ابن سخيرة ، وولدت له ابنه العفيل ، ثم مات فخلفه عليها أبو بكر ليحفظ بيت صاحبه وحليفه .

ومن المتفق عليه أنها كانت امرأة ذكية ، أسلمت وهاجرت ولقيت عنًا شديدًا ، في سبيل دينها وزوجها ، ويُروى عن النبي عليه السلام أنه قال : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظَرَ إِلَى امْرَأَةٍ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى أُمِّ رُومَانَ » . وقد اختلفوا في سنة وفاتها ، من قائل : إنها توفيت في حياة النبي عليه السلام ، إلى قائل : إنها عاشت إلى أيام عثمان رضى الله عنه ، والأرجح في رواية البخارى أنها عاشت إلى أيام عثمان .

ولا يعرف على التحقيق في أى سنة ولدت السيدة عائشة رضى الله عنها : ولكن أقرب الأقوال إلى الصدق وأحراها بالقبول أنها ولدت في السنة الحادية عشرة أو الثانية عشرة قبل الهجرة ، فتكون قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها أو قاربتها يوم بنى بها الرسول عليه السلام .

وجملة ما يفهم من وصفها على التحقيق أنها كانت بيضاء ، فكان عليه السلام يلقيها بالحمراء ، وكانت أقرب إلى الطول ، لأنها كانت تعيب القصر . كما مر في كلامها عن السيدة صفية ، وكانت في صباها نحيلة أو أقرب إلى النحول ، حتى كان الذين يحملون هودجها خاليًا يحسبونها فيه . قالت في حديث لها مشهور : « . . . وأقبل إلى رهط الذين كانوا يرحلون لي - أي يحملون الرحل على البعير - فحملوا هودجي وهم يحسبون. أني فيه ، وكانت النساء إذ ذاك خفافاً لم يبطن ولم يغشن اللحم . إنما يأكلن العلقمة من الطعام . فلم يستكثر القوم نقل الهودج حين رحلوه ورفعوه ، إذ كنت مع ذلك جارية حديثة السن » .

ثم مالت بعد سنوات إلى شيء من السمنة كما جاء في كلامها في حديث آخر : « . . . خرجت مع النبي ﷺ في بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم . فقال ﷺ للناس : تقدموا . فتقدموا . ثم قال : تعالى حتى أسابقك . فسابقته فسكت . حتى إذا حملت اللحم وكنا في سفرة أخرى قال ﷺ للناس : تقدموا . فتقدموا . ثم قال : تعالى حتى أسابقك فسابقته فسبقني فجعل ﷺ يضحك ويقول : هذه بتلك » .

وعلمنا من بعض أحاديثها أنها وعكت مرة فتمزق شعرها . فن ثم وصيها على ما يظهر بالشعر حيث تقول : « إذا كان لأحدكم شعر فليكرمه » . وعلمنا من رواية وقعة الجمل أنها كانت جهورية الصوت ، تخطب العسكر من هودجها في ساحة الحرب فيسمع خطابها .

وعلمنا من جملة أوصافها وأخبارها أنها كانت حية الطبع موفورة النشاط كدأب العصبيين من النساء والرجال ، وكان أبوها رضى الله عنه من أصحاب الصديقة بنت الصديق .

هذا المزاج ولا مرء .

والظاهر أنها ورثت عنه كثيراً من خلقه وخلقه على السواء . فقد كان الصديق جميلاً حتى جاء في بعض الروايات أنه لقب بالعتيق لجماله ، وكان نحيلاً دقيق التكوين كما هو مشهور ، وكانت فيه حدة طبع مع حدة ذكاء . وكان كريماً سريعاً إلى نجدة المعوزين والضعفاء ، وكان صادق المقال لم يؤخذ عليه كذب في الجاهلية ولا في الإسلام . وكان ماضى اللسان قديراً على إفحام من يجترئ عليه ، وتشبه السيدة عائشة في هذه الخلائق شبيهاً كان يوحى إلى النبي عليه السلام كلما سمعها نجيب من يساجلها أن يقول : إنها ابنة أبي بكر ! إنها ابنة أبي بكر .

وقد راضت حديثها زمناً كما كان أبوها يروض حديثه طوال حياته ، ولكنها لم تبلغ من ذلك ما بلغه أبوها لمكان الرجل من القدرة والحاجة إلى سياسة الدنيا . ومكان الفتاة من الضعف ومن الخطوة التي تغتنيها عن الصرامة في مغالبة النفس ومراس الخطوب في كفاح الحياة .

والمعهود في أخلاق الناس أن الجدة تلازمها سرعة الغضب ، كما تلازمها سرعة الصفح والنسيان في معظم الأحيان .

وليس في أخبار السيدة عائشة ما يناقض هذه المشاهدة التي تعم النساء كما تعم الرجال . فليس مما ينقضها أنها رضى الله عنها بقيت على مودة من مسألة الإفك . طوال حياتها . فلم تنس مقالة أحد من القائلين أو الساعين فيها . إذ ليس أهول على نفس الفتاة خاصة ، ولا أوجع لضميرها ، من مطعن يهدم سمعتها ويعصف بهيأتها ، ويفقدها الرجل الذي تحبه والمكانة التي تبوأها ، وأهول ما يكون ذلك على البريئة العزيزة التي يهولها الأمر على قدر ظلمها فيه

وعلى قدر نكبتها بما تفقده من العزة والسمعة . فلا يقاس على موجدة السيدة عائشة في مسألة الإفك سائر خلائقها ودوافع ضميرها . فليس في غير هذه المسألة ما ينم على شيء يتجاوز الحدة العارضة إلى الضغينة الباقية .

حدث مسروق الحمداني قال : « دخلت على عائشة وعندها حسان وهو يرثي بنتاً له ويقول :

رَزَانُ حَصَانُ مَا تُرْنُ بِرِيَّةٍ وَتُصْبِحُ غَرْنِي مِنْ لُحُومِ الْعَوَافِلِ

فقلت عائشة : لكن أنت لست كذلك . فقلت لها : أيدخل عليك هذا وقد قال الله عز وجل : ( وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ) ، فقلت : أما تراه في عذاب عظيم ؟ قد ذهب بصره . وهذا لأن حسان بن ثابت كان ممن نسب إليه شعر في مسألة الإفك لا يرضى السيدة عائشة .

على أنها قبلت عذره ، كما جاء في رواية أخرى ، ونهت عن شتمه ، وذلك فيما رواه يوسف بن ماهك عن أمه حيث تقول : كنت أطوف مع عائشة بالبيت ، فذكرت حسان فسببته ، فقلت : بش ما قلت ! أتسيئه وهو الذي يقول .

فإنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ  
فقلت : أليس ممن لعن الله في الدنيا والآخرة بما قال فيك ؟ قالت لم يقل شيئاً ولكنه الذي يقول :

حَصَانُ رَزَانُ مَا تُرْنُ بِرِيَّةٍ وَتُصْبِحُ غَرْنِي مِنْ لُحُومِ الْعَوَافِلِ  
فَإِنْ كَانَ مَا قَدْ جَاءَ عَنِّي قُلْتُهُ فَلَا رَفَعْتُ سَوْطِي إِلَيَّ أَنَا مِثْلِي

وقال هشام بن عروة عن أبيه : كنت قاعداً عند عائشة ، فمرَّ بijnارة حسان بن ثابت ، فنلت منه ، فقالت : مهلاً ؛ فذكرتها كلامه فقالت : فكيف بقوله :

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ  
ولا شك أن الذي ذكرته السيدة عائشة لحسان لا ينسى ، وأن الذي صفحت عنه بعد ذلك كثير ، وأن حمد الصفح هنا أولى من ملاحظة التذكير والتبكي .

\*\*\*

أما كرم السيدة عائشة فهي فيه إلى النجدة أقرب منها إلى السخاء ، وهي فيه على آسال من أبيها العظيم رضى الله عنه ، تنقذ من الأسر وتغيث من البلاء ، وتعطى من هو في حاجة إلى العون العاجل ما تيسر لها العطاء ، وكانت في كرمها على حال سواء في أيام النبي عليه السلام حين لا مال لديها إلا القليل الذي هي أخرج إليه ، أو في أيام الفتوح التي تيسر لها فيها من المال ما لم يكن قبل بيسور .

كان لعتبة بن أبي المهلّب جارية حبشية اسمها بريرة زوجها على غير رضاها . عبداً من عبيد المغيرة فكرهته وأعرضت عنه ، وهي أهل لمن هو أصلح وآدب منه . فرحمتها السيدة عائشة فاشتريتها وأعتقتها ، وخاطبت فيها النبي عليه السلام فقال لها : ملكك نفسك فاختارى ؟

وكان زوجها يتعلق بها ويتبعها حيث سارت وهي معرضة عنه ، فتعجب النبي بين أصحابه يوماً من فرط حبه لها وزهدها فيه ، وقال لها : اتقى الله فإنه زوجك وأبوك ولدك ! قالت : أأأمرنى ؟ قال : لا . إنما أنا شافع . فقالت : إذن

لا حاجة بي إليه .

وما زالت بعد ذلك في خدمة السيدة عائشة تخلص لها وتذكر لها عطفها عليها ولا تنسى لها جميلها .

وقد أعانها على هذا الخلق السمع أنها رزقت القدوة القريبة بسيد المواسين للضعفاء ومعلم الجاهلين لكسر القلوب ، فلما من شأو بلغته في هذا المعراج الرفيع إلا ارتفع بها رسول الله إلى أعلى منه وأجمل . كانت عندها فتاة يتيمة اسمها الفارعة بنت أسعد فزوجتها لنبيط بن جابر الأنصاري ، وسارت معها في زفافها إلى بيت زوجها . فلما عادت سألتها عليه السلام : ما كان معكم لهو فإنه يُعْجِبُ الأنصارى ؟ هَلَّا بعثتم جاريةً تضربُ بالدُّفِّ وتغنى ؟ فسألته : ماذا تقول يا رسول الله ؟ ! قال : « تقول أتيئناكم أتيئناكم فحيونا نحييكم . ولولا الذهبُ الأحمر ما حلت بواديكم ، ولولا الخنطة السمرء ما سميت عذارىكم » .

وحدثت مولاتها أم ذرة - وهي من الثقات - أن ابن الزبير بعث إلى السيدة عائشة بغوارتين فيهما مال يبلغ مائة ألف درهم ، وكانت صائغة ، فدعت بطبق فجعلت تقسم في الناس . ثم أمست فقالت : يا جارية هاتي فطري . قالت أم ذرة : أما استطعت فيا أنفقت تشترى بدرهم لحماً تفطرين عليه ؟ فقالت : لا تعطيني ! لو كنتِ أذكرتني لفعلت .

وقال ابن سعد عن عروة بن الزبير : رأيت عائشة تصدق بسبعين ألفاً ، وأنها لترقع جانب درعها .

وأيسر ما يستفاد من هذه الروايات على اختلاف مكان روايتها من الثقة أنها رضى الله عنها كانت مشهورة بالكرم والإحسان إلى مستحقه .

وقد كانت بنت أبيها في أكثر من خصلة واحدة من هذه الخصال النادرة

بين الرجال والنساء ، ولكنها كانت أشبه ماتكون به في خصلة الصدق التي بها  
اشتهر ومن أجلها نعت بالصادق ، وغلب هذا النعت عليه حتى أو شك أن ينسى  
الناس اسمه الذي دعاه به أبواه . وقد امتحن صدقها في مآزق عسيرة البلاء  
للنفوس فتحصت عن معدن كريم وعرق سليم ودلت على أصالة هذا الميراث  
النفيس من أبيها العظيم . ففي الغاشية التي أطبقت على العالم الإسلامي من جراء  
الخلاف على الخلافة تطايرت الأحاديث الموضوعة من هنا وهناك ، وتعمد  
أناس أن يصوغوا من عندهم حديثاً لكل حزب ينصره ويرضيه ، ويكبت  
خصمه ويخزيه . وافتن الرضاع في محاكاة الأحاديث النبوية ذلك الافتنان الذي  
شقى به المحققون للروايات بعد ذلك بسنين ، وكانت السيدة عائشة تشترك في  
خصومات المتخاصمين على الخلافة باختيارها أو تساق إلى المشاركة فيها على كره  
منها ، وكانت هي أول من يُسمع له إذا روت حديثاً يدمغ خصومها ويعزز  
أنصارها ، ولكنها لم تنقل قط في كل ما ثبتت نسبته إليها حديثاً واحداً تمسه  
الشبهات من قريب أو بعيد ولا تؤيده الأسانيد الأخرى ، ولم تحرف كلمة واحدة  
إلى غير موقعها طوعية لإغراء تلك النوازع النفسية التي تطيش بالألسنة أو تضلل  
العقول ، وهو امتحان ليس أعسر منه امتحان في هذا الباب ، ولهذا كانوا يروون  
عنها الأحاديث فيقولون : حدثتنا الصديقة بنت الصديق !

ومن الصفات التي شابهت فيها أباهما الذكاء المتوقد والبديهة الواعية ولم  
تقصر فيها عن شأوه .

بل لا نحسبها قصرت عن شأو واحد من معاصريها بين الرجال والنساء على  
السواء في سرعة الفهم وقدرة التحصيل والإحاطة بكل ما يقع في متناول  
ذهنها .



قال أبو الزناد : ما رأيت أحداً أروى لشعر من عروة بن الزبير . فقبل له :  
ما أرواك ! قال : وما روايتي في رواية عائشة ! ما كان ينزل بها شيء إلا  
أنشدت فيه شعراً .

وقد كان عروة بن الزبير أشد الناس حباً لخالته السيدة عائشة وإعظاماً لها  
وتوقيراً لسيرتها . ولكن الذي روى عنها من الشواهد الشعرية في أخبارها التي  
نقلت إلينا يدل على صدق ما وصفها به من غزارة الحفظ وحسن الاستشهاد .

دخل عليها النبي عليه السلام وهي تتمثل بالبيتين التاليين :  
ارْفَعْ ضَعِيفَكَ لَا يَخْرِبُكَ ضَعْفُهُ      يَوْمًا فَتَدْرِكُهُ الْعَوَاقِبُ قَدْ نَمَا  
يَجْزِيكَ أَوْيُنِي عَلَيْكَ وَإِنْ مَنْ      أَثْنَى عَلَيْكَ بِمَا فَعَلْتَ فَقَدْ جَزَى

فقال عليه السلام : لقد أتاني جبريل برسالة من ربي : « أيما رجل صنع إلى  
أخيه صنعة فلم يجد له جزاء إلا الثناء عليه والدعاء له فقد كافأه » .  
ورأت أباها يحود بنفسه فقالت :

لَعَمْرِي مَا يُغْنِي الْكِرَاءَ عَنِ الْفَتَى      إِذَا حَشَرُجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ  
وعادت تقول :

وَأَبْيَضَ بُسْتَقَى الْعَامَ بَوَجْهِهِ      يَحْمَلُ الْيَتَامَى عِصْمَةً لِلْأَرَامِلِ

ومما يروى أنها أنشدته في تلك الساعة وهي ولهي لفراق أبيها :  
وَكُلُّ ذِي عَيْبٍ يُؤُوبُ      وَغَسَائِبُ الْمَوْتِ لَا يُؤُوبُ  
ويؤخذ من بعض ما نقل عنها أنها كانت تسمع شعر زهير وتعجب به ،  
فقالت لإحدى بناته فيما روى الهيثم بن عدي : « إن الخليل التي كساها أبوك هرمًا  
لم يبلها الدهر » .

على أن الفهم والحفظ ملكتان معروفتان للسيدة عائشة كثرت أو قلت الشواهد الشرعية التي وصلت إلينا من أخبارها .

فحسبنا أنها قد روت للنبي عليه السلام أكثر من ألفي حديث في مختلف المسائل التي تدخل فيها الأحكام الشرعية والعظات الخلقية والآداب النفسية والأصول التي يرجع إليها في الدين والعبادة .

بل حسبنا أن يثبت لها عشر هذا العدد من الأحاديث النبوية ليثبت لها أنها كانت تفهم وتعي وتحسن الحفظ فيما تنقله بحروفه كما تحسن التعبير فيما تحكيه بكلامها ، وأنها تحيط في فهمها وحفظها بكل ما أحاطت به الأحاديث من المعارض والمناسبات .

ومع هذا يروى الثقات أنها كانت تحفظ وتفقه وتفسر ، ولا يقتصر علمها على وعى الكلمات والعبارات . قال أبو موسى الأشعري : ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها علماً فيه . وقال عطاء بن أبي رباح : كانت أفقه الناس ، وأعلم الناس ، وأحسن الناس رأياً في العامة . وقال مسروق الهمداني : رأيت مشيخة أصحاب رسول الله الأكابر يسألونها عن الفرائض . وقال عروة بن الزبير : ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة . ومن الأحاديث التي ترفع إلى النبي أنه قال : خذوا شطر دينكم عن هذى الحميراء ، وهو حديث لم يثبت بالسند الصحيح ، ولكن الحق الذي لا مرأى فيه أن المسلمين قد عرفوا الكثير من أمر نبيهم وأمر دينهم من أحاديث عائشة عن زوجها المحبوب عليه السلام .

ولا ريب أنها كانت تقتدى بأبيها في حفظ الأخبار والأنساب كما كانت تقبس من ميراث أخلاقه وطباعه وملكاته . ويستفد من بعض المنقول عنها أنها

كانت تواقه إلى معرفة كل ما نعرف من تواريخ الأمم غير قانعة بأخبار الأمة العربية . ولا بالأخبار التي تعنيها خاصة كأخبار النبي والصحابة والعشيرة الإسلامية . ومنها خبر النجاشي حين هاجر المسلمون إلى بلاده . فأوفد إليه المشركون جماعة منهم يحملون إليه الغوالي والنقائس ليضطش بأولئك المهاجرين أو يردهم إلى قومهم . فقال : « ما أخذ الله مني الرشوة حين ردّ على ملكي فأخذ الرشوة منه . وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه » .

فحقى على السامعين معنى كلامه هذا حتى بلغ السيدة عائشة ففسرته بما انتهى إلى علمها . وهو أن هذا النجاشي كان من الأمراء المعصوبين فأقصاه الملك الغاصب وباعه بيع الرقيق . ثم أعيد إلى ملكه . فاقترضى الرجل الذي اشتراه حقه . وأبى هذا النجاشي إلا أن يعطوه الدراهم من أموالهم ليجزيهم بصنيعهم . فذلك إذ يقول : ما أخذ الله مني رشوة حين ردّ على ملكي فأخذ الرشوة فيه .

وهو تفسير لا يعنينا هنا أن نستقصيه من الوجهة التاريخية . ولكن الذي يعنينا منه شغف السيدة باستطلاع أحوال الأمم كافة حيثما تسنى لها سبيل الاطلاع .

\* \* \*

وغزارة الاطلاع بينة - إلى جانب هذا - من لغة السيدة عائشة التي امتزجت بأسلوبها في كل ما نقل عنها . ولا سيما الخطب والوصف خاصة . فقد كانت لها مادة من اللغة لا تنهياً بغير محصول كبير من أنباء العربية التي تستقى من أعرق مصادرها .

قالت في خطبة بعد وقعة الجمل تذكر أباها : « . . . وأبى ثاني اثنين الله

ثالثها . وأول من سمي صديقاً ، مضى رسول الله ﷺ وهو عنه راض ، وقد طوّقه وَهَقَ (١) الإمامة ، ثم اضطرب حبلُ الدين ، فأخذ بطرفيه ، وَرَبَقَ (٢) لكم أثناءه ، فَوَقَدَ (٣) النفاق ، وغاض نبع الرِّدَّة ، وأطفأ ما حشّت يهود ، وأنتم يومئذ جُحِظَ العيون ، تنتظرون العدو ، وتستمعون الصبيحة ، فَرَأَبَ الثَّأِي (٤) وَأَرْزَمَ (٥) مسقاه ، وامتاح من المهواة ، واجتهد دفن الرواء (٦) حتى أعطى الوارد وأورد الصادر ، وعلى الناهل (٧) فقبضه الله واطنا على هام النفاق ، مُذَكِّباً نارَ الحرب للمشركين ، فانتظمت طاعتكم بحبله ، فولّى أمركم رجلاً مَرَعِيّاً إذا ركن إليه ، بعيد ما بين اللابتين (٨) عركة (٩) للأداة ، يحبّه صفوحاً عن أذاة الجاهلين ، يقظان الليل في نصرة الإسلام .

ووصفت أباها في خطبة أخرى فقالت : « رحمك الله يا أبت ! فلئن أقاموا الدنيا لقد أقت الدين حين وهى شعبه ، وتفاقم صدعه ، ورجفت جوانبه ، وانقبضت عما إليه أصغوا ، وشمرت فيما عنه ونوا ، واستصغرت من دنياك ما أعظموا ، ورغبت بدينك عما أغفلوا ، طالوا عنان الأمر واقتعدت مطى

(١) حبل يجعل في العنق .

(٢) ريقه شده ريقه شده في الريق وهو حبل فيه عرى .

(٣) كسر .

(٤) أى رقع الفتق وأصلح الخلل .

(٥) أى شده .

(٦) امتاح من المهواة أى استقى من البئر العقيمة ، واجتهد دفن الرواء أى أخرج خبايا الماء الغزير .

(٧) النهل : أول الشرب . والعلل : السقى بعد السقى .

(٨) كناية عن سعة الصدر .

(٩) من المعركة أى الاختيار .

الحذر . فلم تهتضم دينك ولم تنس غذك . ففاز عند المساهمة قدحك وخف مما استوزروا ظهرك » .

ووقفت على قبره قائلة - وهو كلام يستغرب تنسيق فواصله وترجييع ضمائره ولكنه لا يستبعد على عصره .

« نصر الله وجهك . وشكر لك صالح سعيك . فلقد كنت للدنيا مذلاً بإعراضك عنها . وللآخرة معزاً بإقبالك عليها . ولئن كان أجلّ الحوادث بعد رسول الله ﷺ رزؤك وأعظم المصائب بعده فقدك . إن كتاب الله ليعدّ بالعزاء عنك حسن العوض منك . فأنا ألتجز من الله مواعده فيك بالصبر عليك . وأستعوضه منك . بالدعاء لك فإننا لله وإنا إليه راجعون . وعليك السلام ورحمة الله توديع غير قالية لحياتك . ولا زارية على القضاء فيك » .

وقد كان لها أسلوب فيما يربجل مناسب موضوعه . كما كان لها فيما يحوز تحضيره أسلوب يناسب ما يحتفل له بالتحضير . فلما حكيت عن زواجها بالنبي قالت بأسلوب مرسل سهل ولكنه من ذلك جزل فصيح : « . . . تزوجني رسول الله ﷺ وأنا ابنة ست سنين . فقدمنا المدينة فترلنا في بني الحارث بن الخزرج فوعكت فتمزق شعري فوق جميمي<sup>(١)</sup> . فأتتني أمي أم رومان وإني لفي أرجوحة ومعى صواحب لي وصرخت لي . فأثبتها لا أدرى ما تريد لي . فأخذتني بيدي حتى أوقفتني على باب الدار . وإني لأنهج حتى سكن بعض نفسي . ثم أخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهي ورأسي . ثم أدخلتني الدار . فإذا نسوة من الأنصار في البيت . فقلن على الخير والبركة . وعلى خير طائر . فأسلمتني إليهن يصلحن من شأنى . فلم يرعنى إلا رسول الله ﷺ ضحى .

(١) الجملة : مجتمع شعر الرأس .

فأسلمتني إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين . . . » .

\* \* \*

ومع هذه المادة اللغوية التي تنم عن استقصاء مادة العربية من أعرق مصادرها لا نستغرب ما تواترت به الروايات من علم السيدة عائشة بطب زمانها وما يصح في زمانها أن يسمى بعلم الفلك والظواهر الجوية لإلمامه بمسالك النجوم ومهاب الأنواء وغير ذلك من معارف البادية والحاضرة في عصر الدعوة الإسلامية .

وهكذا تنظر عائشة لنفسها فلا ترى أنها تقصر عن عائشة في المكان الذي خصتها به الآداب العربية ، ورفعتها إليه الآداب الإسلامية والخطوة النبوية ، لأنه مكان قد استحقته لنشأتها في قبيلتها ودخولها في دينها ، واستحقته كذلك بما تميزت به بين أترابها من جمال وفهم ومعرفة وبيان .

## زوج النبی

كانت السيدة خديجة - رضي الله عنها - أول زوجات النبي عليه السلام .  
وأحبين إليه ، عاش معها زهاء خمس وعشرين سنة ، ولم يتزوج عليها .  
ولا فكر في الزواج بغيرها في حياتها . مع أنه بنى بها وهو في نحو الخامسة  
والعشرين وهي في نحو الأربعين ، وبقيت معه إلى أن أوفت على الخامسة  
والستين .

ثم توفيت حوالي السنة العاشرة بعد الدعوة ، فلم يعرف عنه أنه حزن على  
أحد قط أشد من حزنه عليها ، ولا أطال الذكرى لأحد قط بعد وفاته كما أطال  
ذكرها ، وسمى عام وفاتها « عام الحزن » ، لأن الحزن لم يفارقه طوال أيامه ،  
ولم يفارقه - في الواقع - بقية حياته كلها ، وإن سكنت سؤرته مع الأيام كما  
نسكن كل سورة لاعجة مع ذلك العزم الصادق والقلب الصبور .

وتزوج بالسيدة عائشة بعد وفاة السيدة خديجة بسنوات .

فكان التقابل بين الزوجين من أتم ما تأتى به المصادفة حين تكون المصادفة  
أحكم من التدبير والتقدير ، ولعل هذا التقابل لم يخل كل الخلو من القصد الخفي  
وإن لم تتجه إليه النية في وضوح .

ويبدو لنا أن النبی علیه السلام كان أخرج إلى هذا التقابل العجیب فی حیاته الزوجية .

فالفقی الیتیم الذی فجع فی حنان الأمومة منذ الطفولة الباکرة لم یکن أنفع له من زوجة کریمة رشيدة کالسيدة خدیجة التي أغدقت علیه من حنان الأمومة ماغاته فی بواکیر الطفولة ، وأدرکه عطفها وهو یعالج من نوازع الدعوة النبوية ثورة . مقيمة مقعدة فی سريرة النفس ، لاتزال بین الجلاء والغموض و بین الإقدام والإحجام ، ولاتزال فی هذه الحالة علی حاجتها القصوى إلى التثبيت والکلاء والتشجيع .

أما النبی فی الخمسين من عمره فقد کان أنفع له وأبهج لفؤاده أن یغدق حنان الأبوة علی زوجته التي تظفر منه بالخطوة والمودة ، وأن یستروح من شبابها وجالها نعمة تسعده فی جهاده وریعاً یظله فی وحشة عمره .

كانت خدیجة أمّاً ترعاه .

ثم كانت عائشة طفلة تنعم بتدلیله .

وكانت خدیجة تسعده بالعقل والحنكة .

ثم كانت عائشة تسعده بالطرافة والجمال .

وكانت خدیجة تصاحبه قبل الدعوة وهو یطلب الأنصار فی طوية النفس قبل أن یطلبهم فی عالم النضال والبلاء .

ثم كانت عائشة تصاحبه بعد الدعوة وهو صاحب دین جهر وبهر ، فكانت هی أول سفرائه بالإصهار إلى رجالات العرب ورؤساء العشائر والبیوت .

كان تقابلاً بین الزوجین الفضلین من أعجب ما تأقی به المصادفة ، بل من أعجب ما یأقی به التدبیر ، ولیس هناك تدبیر معروف .



فالذى نعلمه من خطبة النبي عليه السلام للسيدة عائشة أنها كانت من المصادفات التي لمي تحدث بها قط قبل أن تُقترح عليه .

نعم إنه عليه السلام قال لعائشة يوماً : « أريتك في المنام مرتين ، أرى أنك في سرقة من حرير ، ويقال : هذه امرأتك ! فأكشف عنها فإنما هي أنت فأقول : إن بك هذا من عند الله يُمضيه » .

ولكن الحديث يدلنا على مبلغ ما كان في ضمير النبي عليه السلام من هذه النية ، وقد يفهم منه أنه كان عليه السلام يناجي نفسه الشريفة فأمنيته في الزواج ، فطابقت السيدة عائشة مثال هذه الأمنية ، وكان هذا من بواعث حبه إياها لمطابقة الرؤية ما تمثله في الرؤيا .

فأما الخطبة فالذى نعلمه من الروايات المتواترة أنها جاءت بعد اقتراح من سيدة بارة آلمها ما لحظته من حزن على زوجه العزيزة عليه . فقالت له : أي رسول الله ! ألا تتزوج ؟ فسألها : من ؟ قالت : إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً . ثم سألتها عن البكر فذكرت عائشة « بنت أحب خلق الله إليك » . . . وسألها عن الثيب فذكرت سودة بنت زمعة فأوفدها إلى بيت أبي بكر ، وجرت الخطبة بعد ذلك في مجراها الذي انتهى بالزواج بعد سنوات .

هذه السيدة هي خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون من أجلاء الصحابة الذين حرّموا الخمر في الجاهلية وعاش بعد الإسلام عيشة النسك والحكمة . وبقية حديث الخطبة أنها ذهبت إلى أم رومان - أم عائشة - فبدأتها بالحديث قائلة : ما أدخل الله عليكم من الخير والبركة ! قالت : وما ذلك ؟ قالت : أرسلني رسول الله أخطب عليه عائشة . فاستمهلها حتى ترى أبا بكر ، وقيل إن أبا بكر سأل حين بلغه الأمر ، وهل تصلح له وهي بنت أخيه ؟ يظن

أن المؤاخاة بينه وبين النبي قد بلغت مبلغ القرابة التي تمنع المضاهرة . فكان جواب النبي لها : « قولي له أنت أنخي في الإسلام وابنتك تحل لي » ، كما جاء في هذه الرواية .

وإلى هذا الحين لم يكن في تقدير أحد أن صلة من أوثق الصلات ستعقد بين النبي وصفيه الحميم . لأن عائشة كانت مخطوبة قبل ذلك لجبير بن مطعم بن عدى من أصحاب أبيها في الجاهلية . فتخرج أبو بكر من نقض خطبته قبل مراجعته فيها بنويه . وقال لأم رومان زوجته : والله ما أخلف أبو بكر وعداً قط . ثم لقي أبا الفتى وأمه يسألها فيها يتتويانه . فأقبل الأب على امرأته يسألها : ما تقولين ! فالتفت الأم إلى أبي بكر وهي تقول متعللة : لعننا إن أنكحنا هذا الصبي إليك تصبئه وتدخله في دينك الذي أنت عليه ! فلم يجيبها وسأل زوجها : ما تقول أنت ؟ فلم يزدده على أن أجاب : إنها تقول ما تسمع .

فعلم أبو بكر يومئذ أنه في حل من نقض وعده لمطعم بن عدى ، واستقبل النبي خاطباً ، فتمت الخطبة في شوال سنة عشر من الدعوة قبل الهجرة بثلاث سنوات ، وأصدقها النبي عليه السلام أربعمئة درهم على أشهر الروايات . وتختلف الأقوال في سن السيدة عائشة يوم زُفَّت إلى النبي عليه السلام في السنة الثانية للهجرة ، فيحسبها بعضهم تسعاً ويرفعها بعضهم فوق ذلك بضع سنوات .

وهو اختلاف لا غرابة فيه بين قوم لم يتعودوا تسجيل المواليد . إذ قلما يسمع بإنسان - رجلاً كان أو امرأة - في ذلك العصر إلا ذكر له تاريخان أو ثلاثة لميلاده أو زواجه أو وفاته ، وقد يبلغ الاختلاف بين تاريخ وتاريخ في تراجم المشهورين فضلاً عن الخاملين عشر سنين .

والأرجح عندنا أن السيدة عائشة كانت لا تقل عند زفافها إلى النبي عليه السلام عن الثانية عشرة ولا تتجاوز الخامسة عشرة بكثير .

فقد جاء في بعض الموثيق من طبقات ابن سعد أنها خطبت وهي في التاسعة أو السابعة ، ولم يتم الزفاف كما هو معلوم إلا بعد فترة بلغت خمس سنوات في أشهر الأقوال .

ويؤيد هذا الترجيح أن السيدة خولة اقترحتها على النبي وهي في السن المناسبة للزواج على أقرب التقديرات إلى القبول . إذ لا يعقل أنها تشفق من حالة الوحدة التي دعته إلى اقتراح الزواج على النبي وهي تريد له أن يبقى في تلك الحالة أربع سنوات أو خمس سنوات أخرى .

ويؤيد هذا الترجيح ، من غير هذا الجانب ، أن السيدة عائشة كانت مخطوبة قبل خطبتها إلى النبي . وأن خطبة النبي كانت في نحو السنة العاشرة للدعوة .

فإما أن تكون قد خطبت لجبير بن مطعم لأنها بلغت سن الخطبة . وهي قرابة التاسعة أو العاشرة . وبعيد جداً أن تنعقد الخطبة على هذا التقدير مع افتراق الدين بين الأسرتين .

وإما أن تكون قد وعدت لخطبتها وهي وليدة صغيرة كما يتفق أحياناً بين الأسر المتألفة ، وحينئذ يكون أبو بكر مسلماً عند ذلك ، ويستبعد جداً أن يعد بها فتي على دين الجاهلية قبل أن تتفق الأسرتان على الإسلام .

فإذا كان أبو بكر رضى الله عنه قد وعد بها ذلك الموعد قبل إسلامه ، فمعنى ذلك أنها ولدت قبيل الدعوة وكانت تناهز العاشرة يوم جرى حديث زواجها . وخطبها النبي عليه السلام .

ولهذا نرجح أنها كانت بين الثانية عشرة والخامسة عشرة يوم زفت إليه .  
 وأنها هي - رضى الله عنها - كانت نسمع تقديرات سنّها ممن كان حولها لأنها لم  
 تقرأها بداهة في وثيقة مكتوبة . فكان يعجبها على سنة الأنوثة الخالدة أن تأخذ  
 بأصغرها . وكانت هي كثيراً ما تدلُّ بالصغر بين أترابها فلا تنسى إذا اقتضى  
 الحديث ذلك أن تقول : وكنت يومئذ جارية حديثة السن . أو كنت يومئذ  
 صغيرة لا أحفظ شيئاً من القرآن . إلى أشباه ذلك من أحاديثها في هذا المعنى .  
 ذلك هو التقدير الراجح الذي ينفي ما تقولوه المستشرقون على النبي بصدد  
 زواجه بعائشة في سن الطفولة الباكّة . وكل تقدير غير ذلك فهو تقدير  
 مرجوح .

• • •

وقد ملكت ربة البيت الصغيرة بيتها الجديد من اللحظة الأولى . لأنها كانت  
 تدلّ فيه بمكانة الزوجة المحبوبة عند زوجها العطوف . وبمكانة البنة الناشئة عند  
 الأبوة الرحيمة . ومكانة ابنة الصديق العزيز التي أضفى عليها المودة والايثار  
 ما كان بين النبي والصديق من مودة هي أوثق وأبقى من مودة الرحم . لأنها  
 مودة الوفاء والإعجاب والإيمان . أو مودة الحياة وما بعد الحياة .  
 وقد سجلت لنا السيدة عائشة خطرات نفسها خطرة خطرة . ووصفت لنا  
 في بيتها الجديد كل صغيرة وكبيرة ظاهرة وخافية . ولكنها لم تذكر لنا قط كلمة  
 واحدة تنم عن وحشة الانتقال من بيت إلى بيت . ومن معيشة إلى معيشة .  
 ومن ظل أبوين إلى ظل رجل غريب عنها لا تعرف عنه إلا ما تعرفه عن النبي كل  
 صبية مسلمة في سنّها الباكّة . لأن عطف محمد ﷺ هو العطف الغامر الذي  
 لا يلجئ إلى عطف سواه . وقد أغنى زيدا عن أبيه وأمه فأثر حياة الأسر مع

سيده على حياة الحرية مع أبيه وأمه . فأخبر بمثل هذا العطف أن يغنى الفتاة التي تأوى إليه . فتلوذ منه بعطف زوج وعطف أب وعطف صديق .

وتركها على سجيته تلعب بالعراس في بيت زوجها كما كانت تلعب بهن في بيت أمها وأبيها . وربما جاءها صواحبها الصغار « فينقمعن - كما قالت - من رسول الله . فكان عليه السلام يسير بهن إليها ليلعبن معها » .

وقالت جاريتها بريرة تصفها وهي في السنوات الأولى من زواجها :  
« ما كنت أعيب عليها شيئاً إلا أنها كانت جارية صغيرة أعجن العجين وأمرها أن تحفظه فتنام فتأني الشاة فتأكله » .

وكان عليه السلام يتعهدا بما يسرها . وإن عجب الصحابة الذين لا يفهمون وقار الدين كما يفهمه ولا تتسع صدورهم لما يتسع له صدره . ودخل عليها أبوها وعندها قيتان تغنيان في يوم مني والنبي عليه السلام مضطجع مُسجى في ثوبه . فصاح بها : أعند رسول الله يصنع هذا ؟ . فكشف النبي عن وجهه وقال : دعهن فإنها أيام عيد .

وكان السودان يلعبون في يوم من أيام العيد بالدق والحراب فألها عليه السلام : تشتين أن تنظري ؟ قالت : نعم : قالت : « فأقامني وراءه خدي على خده وهو يقول : دونكم يا بني أرفده - كنية الحبشة - حتى إذا مللت قال : حببك ؟ قلت : نعم ! قال : فاذهبي » .

وربما مر أبوها رضى الله عنه بالبيت فيسمع صوتاً عالياً في حضرة النبي عليه السلام . فيدخل غاضباً يتناولها ليلطمها وينهرها قائلاً : لا أراك ترفعين صوتك على رسول الله . فينهض عليه السلام ليحجزه ويقول لها بعد خروجه : رأيت كيف أنقذتك من الرجل ؟

وفي مرة من هذه المرات خرج أبو بكر مغضباً ثم عاد فوجدهما قد اصطلحا .  
فقال لهما : أدخلاني في سلمكما كما أدخلتاني في حربكما .  
فقال النبي : قد فعلنا .

ولم يخفَ هذا العطف الذي لا نظير له بين الأزواج على السيدة عائشة ،  
وهي ما هي في ذكائها وعلمها ببيوت الصحابة وغيرها . وازدادت به علماً يوم  
شاركها الزميلات في بيت النبي ، وقد شاءت الدواعي السياسية والدينية أن  
تتعدد زوجاته ، وتتعدد صلات المصاهرات بينه وبين قبائل الجزيرة العربية ،  
فقد عرفت مكانها وهي بين تسع من الزميلات ، كما عرفت مكانتها وهي  
موشكة أن تنفرد في بيت النبوة ، وكان عليه السلام يعدل بينها وبين زميلاتها فيما  
يملك العدل فيه . أما ميل قلبه فكان يستغفر الله فيه قائلاً : « اللهم هذا قسمي  
فيا أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » .

وشكرت له هذا الايثار ، وفخرت به في معارض حديثها كلما بدا لها معرض  
للتشكر أو للتحدث بنعمة الله عليها . فقص عليها النبي يوماً قصة النسوة الإحدى  
عشرة اللواتي اجتمعن فتذاكرن أوصاف أزواجهن من خير وشر ، وكانت  
الحادية عشرة منهن - وهي أم زرع - مُحِيتَ لزوجها ، فوصفته بأحسن  
ما يوصف به الأزواج في السر والعلانية . فقالت السيدة عائشة : « بأبي وأمي  
لأنت يارسول الله خير لي من أبي زرع لأم زرع » .

وهي القائلة بعد وفاة النبي في مزاياها التي اختصت بها دون أترابها :  
« فضلت على نساء النبي ﷺ بعشراً لم ينكح بكراً قط، غيري ، ولا امرأة  
أبواها مهاجران غيري ، وأنزل الله براءتي من السماء ، وجاء جبريل بصورتي  
من السماء في حريرة ، وكنت أغتسل أنا وهو في إناء واحد ولم يكن يصنع ذلك

بأحد من نسائه غيرى ، وكان يصلى وأنا معترضة بين يديه دون غيرى ، وكان ينزل عليه الوحى وهو معى ولم ينزل وهو مع غيرى ، وقبض وهو بين سحرى ونحرى ، وفى الليلة التى كان الدور على فيها ودفن فى بيتى .  
 وكان هذا المميز سر البيت النبوى فى مبدأ أمره ، ثم شاع فى الجزيرة العربية حتى كان صاحب الهدية من المسلمين يؤخرها ليعث بها إلى النبي وهو فى بيت عائشة .

فوقع التغاير الذى لا يحصى منه بين الزوجات ، وأرسلن إليه إحداهن أم سلمة ، فأعرض عن حديثها ثلاث مرات ، فلما أثقلت عليه قال لها : « لا تؤذيني فى عائشة . فإن الوحى لم يأتنى وأنا فى ثوب امرأة غير عائشة » . .  
 يريد بالثوب البيت فى بعض التفسيرات ، ومن قولهم ثاب إليه يثوب فهو فى الثوب الذى لا يزال يرجع إليه .

وتوسلن بالسيدة فاطمة رضى الله عنها لما يعلمن من قبول أبيها لكل شفاعة تأتیه منها ، فقالت له : « إِنْ نَسَأَكَ يَنْشُدَنَّكَ اللهُ الْعَدْلَ فى بنتِ أبى بكر . قال لها : يَا بِنْتِى ! أَلَا تُحِبِّينِ مَا أَحَبُّ ؟ قالت : بلى . قال : فَأُحِبِّ هَذِهِ » . . .  
 يشير إلى عائشة .

ويسير على الزميلات المتنافسات أن يدركن حب النبى لعائشة ، ويلحظن أنها كانت أحبين جميعاً إليه وأقربهن جميعاً إلى فؤاده .  
 ولكن الذى لم يكن يسيراً عليهن أن يدركنه أو يلحظنه أنها هى رضى الله عنها كانت أشدهن حباً له ونفاذاً إلى نفسه واتصالاً بقلبه ولبه .  
 فكلهن كن يحبين ويتنافسن على قربه ، ولو كان فيه التنافس على الموت وفراق الدنيا ومن فيها . وحدثن يوماً عن تلحق به بعد فراقه الدنيا فقال :

« أَسْرَعُكُمْ لِحَقَاقِي أَطْوَلُكُمْ يَدًا » . . فجعل يقسن أيديهن . وما منهن إلا من تمنى أن تكون هي صاحبة اليد الطولى . ثم ظهر لهن أن المراد بالطول هنا طول اليد بالصدقة والعمل الصالح . . فغبطن زميلتهن زينب بنت جحش . لأنها استحققت اللحاق به لعملها بيدها وإكثارها من الصدقات على مستحقيها . إلا أن الحب الذي يبدو من فطنة عائشة لسرائر النبي أعمق وأقوى . فما منهن من لصقت بنفسه كما لصقت بها . ومن نفذت إلى معانيه كما نفذت إليها . ومن عاشرته في روحه وطوبته كما عاشرته بروحها وطوبتها وفي كلامها من الشواهد على ذلك ما ليس في كلامهن على تيسر الوسائل لهن أن يعرفن مثل ما عرفت وأن ينقلن عنه مثل ما نقلت . وليس أدل على اقتراب الحب من هذا الاقتراب الذي امتازت به عليهن . فكان إثارة النبي لها ضرباً من العدل على هذا الاعتبار .

لقد كانت تحبه حب المسلمة لنبيها .

وكانت تحبه حب الزوجة لزوجها والمرأة لرجلها . وكانت تعجب بنجالة كما تعجب بأدبه وعظمة قدره .

وكان يسرها أن تستمع إلى صوته وتصفى إلى ترتيل حديثه كما يسرها أن تستوضح معناه لأنه - كما كانت تقول لسائليها - لا يسرد كسر دكم هذا ولكنه « يحدث حديثاً لو عدّه العادّ لأحصاه » . .

وكانت تغار عليه أشد غيرة عرفت بها امرأة على زوجها . وربما خرج من عندها في ليلتها . فإذا هي تتبعه إلى حيث ذهب مخافة أن يلم ببيت زميلة من زميلاتنا . ووجدته في ليلة من هذه الليالي قد ذهب إلى المقابر يصلى للشهداء . ويستغفر لهم . فعادت إلى بيتها تقول لنفسها : بأبي أنت وأمي ! أنت في حاجة



ربك . وأنا في حاجة الدنيا ! ولكنها لبثت مكروبة الصدر مما خامرها من  
خاطرها الأول ومن خطأ ظنها . فلما قفل عليه السلام إليها لحظ ما بها فسالها :  
ما هذا النفس يا عائشة ! قالت : بأى أنت وأمى ! أتيتنى فوضعت ثوبيك ثم لم  
تستم أن أقت فلبستهما . فأخذتني غيرة شديدة ظننت أنك تأتى بعض  
صوتى حتى رأيتك بالبقيع تصنع ما تصنع . . . وخرج مرة أخرى ثم عاد إليها  
فإذا هى فى مثل تلك الحالة : أغرت ؟ قالت : وهل مثل لا يغار على مثلك ؟  
فقال : لقد جاءك زميلانك !

ولم تنس قط أن تتحلى بما يروقه من مرآها . فكانت تلبس المعصفر  
والمضرج . وتتحرى ما يعجبه من الطيب والحلية . ودخلت عليه امرأة وهى  
معصفرة فسألها عن الحناء . فقالت : شجرة طيبة وماء طهور وسألها عن  
الحفاف فقالت لها : « إن كان لك زوج فاستطعت أن تتزعى مقلتك فتصنعيهما  
أحسن مما هما فافعلى » .

~ ~ ~

ومن الجائز - أو ربما كان الواقع - أن زميلاتها أمهات المؤمنين كن يغرن على  
النبي مثل غيرنها ، ويجهدن فى رضائه مثل جهدها . ولكنهن - ولا ريب - لم  
يلغن شأوها فى حبها إياه حين نفهم من الحب ذلك الأقتراب بين النفسين  
بالبداهة والشعور . وليس فى أحاديثهن عنه مثل ما فى أحاديثها عنه من ذلك  
الإحساس بالقرب . وذلك النفاذ إلى الطوية . وليست المسألة هنا مسألة الكثرة  
أو القلة فى الأحاديث . فرمما كان تعليل الكثرة فى أحاديث عائشة عن النبي أنه  
كان عليه السلام أكثر تحدثاً إليها وارتباطاً إلى مجالستها ومسامرتها . ولكنها مسألة  
الرفق فى الأداء والخبرة بالمعنى والقدرة على الاستيحاء والشعور الباطن بقلة

حواجز بين النفسين واتصال الحس بينهما واللقانة .

ومن البديهي أنها لم تبلغ هذه المنزلة في حب النبي وفهمه طفرة واحدة ولا في ستة واحدة أو ستين . بل لبثت السنوات الأولى من عشرتها له وهي تقترب من الأنس به إلى المعرفة بنفسه وعقله والترقى إلى عظمته ونبله . . حتى أدركت ما يتاح لها أن تدرك من تلك العظمة التي تعلو على هامتها وهامات الرجال من حولها . ولكنها هي - ببداهة المرأة وبداهة الحب الأنثوي - كانت تستقرب ما يبعد على غيرها . وتستعيض ما يفوتها من الفهم الواضح بما يفوتهم من اللقانة الباطنية والوعي المستسر في الإخلاد .

ومضت السنوات الأولى في عشرة النبي وهي تفقه من أحاديثه ما تيسر لها أن تفقه ولا تقرأ كثيراً من القرآن . أو كما قالت في حديث الإفك ، كنت « جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن . . والخمست اسم يعقوب فما أذكره فقلت : ولكن سأقول كما قال أبو يوسف فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

وقد أمهلها النبي في هذه السنوات رفقا بها وإعداداً لفهمها وعزمها ، ولكنه لم يفتأ رويداً رويداً يشركها في العبء الذي ينبغي أن تنهض به زوجة النبي وأم المؤمنين وسفيرته الأولى إلى عالم النساء في عصره وفيما يليه من العصور . فكانت تحضره إذا بايع النساء أو صلى بهن أو جلسن إليه يسألنه في أمور الدين وآداب الزوجية ، ويتفق كثيراً أن يعرض عن الجواب حياء ، فيوكلها بالتفسير والإسهاب حيث يعز الفهم على سائلاته اللواتي يستقصين في السؤال . سأله أسماء بنت شكل من نساء الأنصار : كيف تكون الطهارة من الحيض ؟ فقال لها : « خذي فرضة ممسكة فتوضئي ثلاثاً » . أو قال تطهري

ثلاثاً . . فقالت : وكيف أتطهر ؟ قال : سبحان الله ! تطهري بها . وأعرض بوجهه حياء . فاجتذبتها السيدة عائشة وكفتها عن سؤاله .

وما زالت رضى الله عنها تعي من سنن النبي في المسائل النسائية وغير النسائية حتى احتاج الرجال أن يسألوها ويرجعوا إليها في كل ما تراجع فيه السنن النبوية من شئون عامة وخاصة . ومن أعم المسائل التي روجعت فيها أن معاوية كتب إليها لتوصيه وترشده فأرسلت إليه تقول : سلام عليك - أما بعد ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ التَّمَسَ رِضَاءَ اللَّهِ يَسْخَطِ النَّاسُ كَفَاهُ اللَّهُ مَوْنَةَ النَّاسِ ، وَمَنْ التَّمَسَ رِضَاءَ النَّاسِ يَسْخَطِ اللَّهُ وَكَلَهُ إِلَى النَّاسِ » .

فلم يكن أعجب من سؤال معاوية في تعميمه إلا حسن الاختيار في هذا الجواب وهو ألزم مايزود به الملوك من وصية وإرشاد .

وقد نهضت السيدة عائشة بأمانة التبليغ والتعليم أحسن نهوض وأوفاه . فما تورعت عن كتمان شيء من الأشياء التي تسأل عنها ولها اتصال بقواعد الدين وأصول التطهير وشروط العبادات ونواقض الصلاة والصيام . فأسلوبها في تبليغ هذه الأحكام هو أسلوب التعليم وأسلوب أم المؤمنين في خطاب بناتها وبنيتها من المسترشدات والمسترشدين . ولم يكن في مقدورها أن تتوخى أسلوباً غير هذا الأسلوب ، ولو عرضت لأخص الأمور التي تسكت عنها النساء ، لأنها المرجع الذي لا يغنى عنه مرجع في سنن النبي ومأثوراته وأعماله فمن الإخلال بالأمانة النبوية أن تسكت عن سنة مطلوبة يعرضها السكوت للضياع .

ولقد تكون هذه السيدة الفضلى التي أفصحت عن كل فتوى نسوية مثلت عنها وهي ماتأذن لعمها في الرضاع أن يراها إلا بعد مراجعة النبي عليه السلام . فأسلوبها في تفصيل السنن النبوية والقواعد الشرعية إنما كان فريضة الأمانة

وضريبة الوفاء . ولم يكن شيمة الطبع واللسان .

» » »

ودامت هذه الحياة الزوجية النادرة زهاء تسع سنين إلى أن توفي النبي عليه السلام .

ومن الحق أن توصف بأنها حياة زوجية سعيدة لأننا لا نعرف بين أزواج الهداة والعظماء من ظفرت بأسعد منها أو كانت أرضى من السيدة عائشة عن حياتها .

ففي طوال هذه الستين لم تمتزج هذه الحياة قط بكدر أو مساءة تعود فيها التبعة على أحد من الزوجين .

وأخطر ما ألم بهذه الحياة الزوجية في السنين التسع كلها حديث الإفك وغضب النبي من زوجاته جميعاً لتنازعهن في فترة من الزمن وإخافهن عليه في طلب المزيد من النفقة والزينة .

فأما حديث الإفك فلا يد للزوجين فيه . وقد امتحنت به أريحية النبي وعطفه على أهله . فأسفر عن خير ما تطمح إليه الزوجة من حنو وسماحة وإعزاز . وأما غضب النبي من زوجاته لتنازعهن وإخافهن في طلب النفقة فعارض مضي مرة ومضى أمثاله عشرات المرات في كل حياة زوجية بين جميع طبقات الناس . وكان خير درس لأمهات المؤمنين يعلمهن أن يصبرن على ضرورات العيش كما يصبر النبي عليها . لأنهن قدوة في القناعة ومغالبة الهوى . ولسن بقدوة في الترف ونعمة العيش . وقد خبرن بعد هذا الدرس بين التسريح والصبر على نصيبهن فاخترن أجمل النصيبين بهن . وهو الصبر على سنة الأنبياء وأمهات المؤمنين .

ومما لا شك فيه أن السيدة عائشة قد خامرها الأسى في هذه الحياة الزوجية  
 لشيء لا حيلة لها ولا للنبي فيه . وهو الحرمان من الذرية التي كانت تتوق إليها  
 كما تتوق كل أنثى . ولا سيما بعد ما علمت من حب النبي لزوجته الأولى ووفائه  
 لعهدا وترديده لذكرها لأن له البنين والبنات منها .

وظهر ألمها هذا حين قالت للنبي وهي حزينة كاسفة : كل صواحبى لمن  
 كنى ! . . قال فاكتنى بابنك عبد الله ! يشير إلى عبد الله بن الزبير ابن أختها  
 أسماء . . فجعلت تكتنى به وتحب ذلك الحب الأموى الذى يستمد القوة من  
 الحنو والشوق والحرمان .

وانفقت الأقوال على أنها رضى الله عنها لم تحمل قط إلا رواية جاء فيها أنها  
 أسقطت ولداً سماه النبي عبد الله فكانت لهذا تكتنى بأم عبد الله .  
 وراقها أن تدعى أم المؤمنين وأن يناديها الناس يا أمه يا أمه . فكان في هذا  
 النداء تعزية كما كان فيه تشويق وتذكير .

والمرأة لا يهون عليها فقد الذرية . ولا سيما إذا أحببت الزوج الذى تود أن  
 ترزق منه الذرية . ولكنها إذا التقت التهوين فلن تجد تهويناً أبر بها وأروح لقلبها  
 من شعورها بعطف زوجها عليها . وأنها بلغت من ذلك العطف ما لا تريده  
 الذرية التى تتمناها .

• • •

قلنا في كتابنا عبقرية محمد : « لسنا ندري لم طالت الفترة التى مضت على  
 أزواج النبي جميعاً بغير عقب . ولكننا لا نستبعد تعليلها باجتماع المصادفات التى  
 لا يندر أن تجتمع في أمثال هذه الأحوال . فعائشة البكر التى لم يتزوج النبي بكراً  
 غيرها قد مات عنها عليه السلام وهى دون العشرين . وهى سن قد تبلغها المرأة

ولا تلد ، وإن كانت ولوداً فيها بعدها . أما أزواجه الأخريات اللاتي تزوجن قبله فلا نعلم من أخبارهن أنهن أعقبن لأزواجهن الأولين خلقة غير رملة أم حبيبة وهند بنت أمية المخزومية ، وهذه كانت مسنة يوم بنى بها النبي عليه السلام . وفي عمر لا يستغرب فيه امتناع الولادة . فكلهن ماعدات هاتين لم يلدن للنبي ولا لزوج قبله ، واجتماع هذه المصادفة ليس بالعجيبة المعضلة التي يصعب تعليلها إذا تذكرنا أن النبي قد توخى في اختيارهن تلك الأغراض العامة التي أجمعناها في الفصل السابق ولم يتحرر منها النسل خاصة : وهي الإيواء الشريف والمصاهرة . وبعضهن - بل معظمهن - قد لقين من الشدائد والمخاوف وعناء الهجرة البعيدة ما يعقم الولود . فإذا أضفنا إلى ذلك معيشة الكفاف وضريبة العظمة النبوية التي أشرنا إليها على سبيل الاحتمال ، واشتغال النبي فيما بين الخمسين والستين بتعزيز الدين وقمع ودرء الأخطار - لم يكن فهم تلك الظاهرة الحيوية بالأمر العصي على التعليل .

وفي صدد الكلام عن عائشة في كتاب خاص بها يدعونا سياق التحليل والتعليل إلى مراجعة البحث والعلم في ظواهر حياتها البتية ، إن كان للعلم كلمة يقال في هذا الموضوع .

فليس من الغريب أن يتأخر حمل المرأة إلى ما بعد العشرين ثم تلد مرات ، وقد كان من المحتمل - بل الراجح أن السيدة عائشة تجاوزت العشرين حين وفاة النبي عليه السلام .

وإذا كان تأخر الحمل إلى ما بعد العشرين لا يطرد لازماً في أحوال النساء عامة فهو من العوارض التي تشاهد ولا تستغرب إذا اتفق لها سبب يرجع في تعليله إلى العلم والمشاهدة .

والعوارض التي نستطيع أن نهتدى إليها في تاريخ السيدة عائشة هي أنها قد أصيبت فيما دون العاشرة بحمى مزقت شعرها كما ذكرت هي في بعض أحاديثها وأنها كانت توعلك من حين إلى حين كما يفهم من قولها في حديث الإفك : « واشتكيته حين قدمنا المدينة شهراً . والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك .. ويريني في وجعي أنني لا أعرف من رسول الله اللطف الذي كنت أرى منه حين اشتكي .. فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضاً إلى مرضى » .. وقد علمنا من حيث الإفك أنها إذا فوجئت بخبر محزن أو مغضب تصاب بحمى نافض كما يصاب الذين تعاودهم حمى البرداء في هذه الحالات .

والأطباء الذين سألهم عن هذه الحمى التي تسقط الشعر وتتجدد لها معاودة تنهك الجسم رجحوا أنها البرداء ( الملاريا ) أو التيفويد . والأولى أرجح . لأنها كانت فاشية بأعراضها المعروفة بين أهل المدينة في أيام الهجرة . قالت السيدة عائشة : « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وهي أوبأ أرض الله أصاب أصحابه منها بلاء وسقم . وصرف الله ذلك عن نبيه ﷺ . وأصاب أبا بكر وبلا لا وعامر بن فهيرة . فاستأذنت رسول الله ﷺ في عبادتهم وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب فأذن لي . فدخلت عليهم وهم في بيت واحد . فقلت : كيف تجدك يا أبت ؟ فقال :

كُلُّ أَمْرٍ مُّصِيبٌ فِي أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَذْنِي مِنْ شِرَاكِ نَعْلِي  
فقلت : والله ما يدري أبي ما يقول :

ثم دنوت من عامر فقلت : كيف تجدك يا عامر ؟ فقال :  
لَقَدْ وَجَدْتُ الْمَوْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِ إِنَّ الْجَبَانَ حَقَّقَهُ مِنْ قَوْعِهِ

كل أمرئ مجاهد بطوقه كالنور يحيى الله بروقه  
قلت : والله ما يدري عامر ما يقول :

وكان بلال إذا أفلحت عنه الحمى يرفع عقبرته ويقول :  
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أُبَيِّنُ لَيْلَةً بِوَادٍ وَحَوْلَى إِذْخَرُ وَجَلِيلٌ<sup>(١)</sup>  
وَهَلْ أَرِدُنْ يَوْمًا مِيَاةً مَجَنَّةٍ وَهَلْ يَذْنُونُ لِي شَامَةً وَطَفِيلٌ<sup>(٢)</sup>  
قالت عائشة : « فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته فقلت : إنهم ليهذون  
وما يعقلون من شدة الحمى . فقال : اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة كحُبِّنا مكة  
أو أشدَّ . وصحَّحها . وباركْ لنا في صاعها ومُدَّها . وانقل حُمَّاها فاجعلها  
بالجحفة » وهي في الطريق من مكة إلى المدينة .

فإذا كانت حمى البرداء قد أصابت السيدة عائشة فيما دون العاشرة وظلت  
عقاييلها تعاودها فأيسر ما يقال هنا إننا حيال عارض ذى بال يلتفت إليه في  
تعليل ما أسلفناه .

وسألت أفاضل الأطباء في ذلك فقالوا : إن هذه الحمى لا تعطل الحمل  
ضرورة ولكنها قد تعطله من طريق إضعاف الجسم كله حتى يتغلب على  
عقاييلها . قلت : وإذا أضيفت إليها معيشة الكفاف ؟  
وإنما سألتهم هذا السؤال لأن المتواتر عن معيشة النبی عليه السلام في بيته أنه  
كان لا يشبع من خبز البر أو الشعير ثلاث ليال متواليات . وأنه لم يشبع من خبز  
وزيت مرتين في يوم واحد . وأنه هو وأهله كانوا لا يصيبون من المطاعم  
إلا بمقدار ما يدفع الجوع .

( ١ ) نباتان في وادي مكة أحدهما وهو الإذخر طيب الرائحة والآخر اللام .

( ٢ ) جبلان بمكة .



فكان من جواب الأطباء أن عقايل الحمى وقلة الغذاء من الأسباب التي لا يعدوها النظر في بحث هذا الموضوع ، فإذا صحت مع هذا رواية السقط فهي دليل على أثر تركته الحمى يعترض وظيفة الحمل والولادة .

وأيًا كانت هذه العوارض فهي كل ما لدينا من أسباب المراجعة العلمية التي تعلل لنا حرمان السيدة عائشة رضي الله عنها من نعمة الذرية ، نلم بها ، لأن الإلمام بها لا غنى عنه في هذا المقام .

\* \* \*

وأية كانت علة هذا العارض فالأمر الذي لا شك فيه أنه لم يكدر صفو المودة والبر بين النبي وأهله ، وأنه لم يمنع هذه الحياة الزوجية أن تكون قدوة للمقتدين في العطف وأدب المعاشرة . وكانت هي العروة الوثقى كما وصفها النبي عليه السلام . فإذا سأله السيدة عائشة بين الفينة والفينة مدلة بمكانها عنده وعطفه عليها : كيف حال العروة يا رسول الله ؟ قال : على عهدنا لا تتغير . أما العلاقات البيتية التي فرضتها هذه الحياة الزوجية على السيدة عائشة - رضي الله عنها - فقد كانت على أحسن ما تتسنى العلاقات بين أناس تجمعهم معيشة واحدة .

فهي وزميلاتها كن يتغايرن ويتنافسن لا محالة كما تتغاير النساء في كل مكان ، ولكنهن لم ينسين قط أنهن نساء نبي يتأدبن بأدبه ويتطلعن إلى رضاه ويفزعن من غضبه .

فقصارى ما سمعناه من فلتات الغيرة على لسان السيدة عائشة أنها كانت تقول عن السيدة خديجة : « إنها عجوز حمراء الشدين » ، ثم يعاتبها النبي فتندم ولا تعود إلى مثل هذه المقالة .. أو أنها عابت السيدة صفية مرة فقالت إنها

قصيرة .. فاستكبر النبي هذه الكلمة وقال لها إنها لتخرج البحر إذا مزجت به . فلم تعد إلى مثلها .

وعلى ما كان بين عائشة وزينب بنت جحش من التنافس الشديد في الجمال والزلفى ستحت لزينب سائحة تقول فيها ما تقوله الضرة المحنقة فلم ينبس فيها بكلمة باطل . وذلك إذ سألها عليه السلام في حديث الإفك فاستعازت بالله وقالت : « أحمى سمعى وبصرى ، والله ما علمت إلا خيراً » .

وأحسَّتْ سَوْدَةُ إحدى زميلاتِها أمهات المؤمنين أنها أَسَنَّتْ وضعفت ، فتركت ليلتها لعائشة راضية ، وقالت عائشة تشكرها : « ما رأيت امرأة أحب إلى أن أكون في مسلاتها من سودة » .

فكل ما روى لنا من تغاير زوجات النبي إن ذكرنا أنهن نساء من طينة الأنوثة الخالدة فلن ينسينا أنهن نساء نبي يتأدبن بأدبه ، ولا يحاوزن بالغيرة ما يحمل بهن في كنفه ورعايته . وإن تسع أخوات شقيقات من أب واحد وأم واحدة ليقع بينهن من شحنة الغيرة إذ اجتمعن في بيت أسرتهن أضعاف ما روى لنا من غيرة زوجات النبي في عشرتهن الطويلة .

» » »

أما قرابة النبي فأعزها قدرًا عنده قرابة السيدة فاطمة وزوجها وبنيتها . وكانت الصلة بين السيدة عائشة وبينهم جميعًا على أكمل ما ترضاه السجية الإنسانية في كل صلة من قبيلها .

فالسيدة فاطمة كانت أحب الناس إليه - عليه السلام - كما هو العهد بأبوته الشريفة التي تشمل الناس جميعًا بالحنان والمودة فضلًا عن بناته وبنيه . وسئل - كما قالت عائشة مرة - : من أحب الناس إليك ؟ فقال : فاطمة ! ثم

سئل : ومن الرجال ؟ فقال زوجها .

وفاطمة بعدُ أم السبطين اللذين كان عليه السلام يلاعبهما ويلطفهما ويوصي بهما ويسميهم ولديه وهو مشوق إلى إنجاب الأبناء . وهي كذلك بنت خديجة التي نفست عليها عائشة قديم مكانتها وطويل وفاء النبي لذاكرها .  
فالسيدة فاطمة والسيدة عائشة شريكتان في قلب واحد تتنافسان عليه .  
ولكنها شركة بين كريمتين .

ومن أثر هذه المنافسة أن أمهات المؤمنين أوفدن السيدة فاطمة إلى النبي ليعدل بينهن وبين عائشة فقبلت الوفادة .

وربما خطر للسيدة عائشة أن علياً رضي الله عنه قد تأثر بهذه المنافسة يوم سأله النبي في حديث الإفك فقال : « ... لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير » .

ومن الصدق للتاريخ وللطبع الإنساني أن نلاحظ هذه الأمور . لأن الطبع الإنساني لن يدع حقوقه على أبنائه . ولن يكون الإنسان من لحم ودم إلا إذا كان فيه للحم والدم نوازعها التي لا فكاك منها . وإن راضها أدب النبوة ونبل العشيرة . فتأثرت إلى أكرومة تجمل بالكرام .

فالصلة بين عائشة وقرابة النبي قد كانت صلة الأدب والتجمل والمجاملة . ولكنها كانت في مجال لا يغيب فيه التنافس على العطف والإعزاز .  
والمثل هنا أيضاً قدوة المقتدين في الأسر العليا التي عرفها التاريخ . سواء منهم من أخذ بأدب الدين أو بأدب الدنيا .

وهي على الجملة « حياة زوجية » سعيدة نزلت منها السيدة عائشة منزلة الزوجة المدللة في طوال أيامها ، ثم منزلة الشريكة المعينة في عبء التبليغ .

والرسالة . وبلغت من الثقة بها في هذه المعونة حمادى ما تبلغه شريكة حياة .  
وحفظت من تعليم النى ما لم يحفظه أحد . وحفظ عندها النبى أغلى الودائع من  
عدد : صحف الكتاب وسنته المشروعة لتابعيه .

## حديث الإفك

حديث الإفك هو حديث القصة التي أشاعها بعض المنافقين عن السيدة عائشة - رضى الله عنها - وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول - زعيم المدينة المتور الذي لم ينسَ قطَ حَقْلَه على النبي ولا على الإسلام والمسلمين .  
وحديث الإفك هذا هو الحديث الذي اجتمعت له كل بواعث الفضول والوشاية التي تغري ألسنة الناس بالخوض في أمثال هذه الأحاديث . ولو كانت من نسج الخيال واختراع القصاص .  
فمن دأب الناس قديماً أن يتطلعوا إلى الأسرار . ويكثروا القيل والقال في الوشائيات .

وهم أشد تطلعاً إليها وكلفاً بالقيل والقال فيها إذ اشتملت على وشاية من وشائيات الرجال والنساء . ولولا كلفهم بهذا لما اخترعت لهم القصص والروايات التي يقرءون فيها أخبار رجل لا وجود له وامرأة لا وجود لها . وهم يعلمون أنها من نسج الخيال .

ولكنهم أشد من ذلك تطلعاً إليها . وكلفاً بالقيل والقال فيها . إذا هي تعلقت بعظماء الرجال وعظماء النساء .

ثم يبلغ التطلع أشده والكلف حده إذا كان لأحد من الناس غرض في

ترويج الإشاعة واللغظ بها . والاسترسال في ذبولها وحواشيها .  
 فإذا كان هذا الغرض على اتصال بالعصبيات القومية . والعقائد العامة التي  
 تصطرع حولها الأهواء . وتضطرم فيها الضغائن . ويطول فيها جدل المصدقين  
 والمكذابين . ونزاع المحبين والمبغضين . فقد اجتمعت للقصة - كما قلنا في صدر  
 هذا الفصل - كلُّ بواعث الفضول والوشاية . وأحاطت بها كل مغريات اللغظ  
 والتشهير .

وهذا الذي حدث بخلافه في حديث الإفك الذي تَوَلَّى كِبَرَهُ زعيم الخرج  
 في المدينة عبد الله بن أبي بن سلول .  
 فهو حديث وشاية عن رجل وامرأة .  
 وهما أعظم الرجال وأعظم النساء .  
 وفي اللَّغْظ به غرض قوى لأكبر زعماء الخرج في زمانه ، وغرض قوى  
 لكل من يبغي المساس بالنبي . وبالإسلام كله من طريق المساس بنبي الإسلام .  
 ولولا ذلك لما سُمِعَ بحديث الإفك ، ولا استحق أن يُصَغَى إليه . لأنه  
 أَوْهَى وأسخف من أن يطول فيه تصحيح وتفنيد .  
 وكأَيُّ من رئيس في قومه وَثَرَ كما وَثَرَ ابن سلول . واشتمل قلبه على  
 البغض كما اشتمل قلب ابن سلول على بغض النبي . وأحبُّ أن يهدم دعوة  
 من الدعوات كما أحب ابن سلول أن يهدم دعوة الإسلام . ولكنه مع كل  
 هذا يتورَّع عن رجم المحصنات بالباطل ، ويمسك لسانه عن الخوض في وشايات  
 الدنس لأنها مسبة لا تجمل بمروءة الكرام .

إلا أن ابن سلول لم يكن من هؤلاء الرؤساء المتورعين المترفعين . ولم يكن له  
 من أخلاقه ما يعصمه أن يكذب وأن ينافق وأن يداهن . وأن يصطنع الوشاية

ويلق في الأعراض ، لأنه كان مطبوعاً على النفاق مشهوراً به بين أصحابه وخصومه على السواء .

كان زعيم الخزرج بالمدينة ، فكان ينافس زعماء الأوس بها في إرضاء النبي والتزلف إليه ، ثم يخلو بأعداء الإسلام فيؤلبهم على المسلمين ، ويسول لهم قتل النبي ، ويوغر صدورهم على هذا الدين الجديد ، وكل منتصر له وكل متسبب إليه .

وقبيل حديث الإفك بأيام قليلة كانت فئة من الأنصار والمهاجرين تستقي ، فتنزع رجالان منها على الماء ، كما يحدث على كل بئر ، وفي كل مورد يكثر حوله القصاد . فلم يدعها ابن سلول تنقضي دون أن يثير فيها الثائرة التي ودَّ أن تعصف بالمسلمين أجمعين . وقال مستهولاً : أوقد فعلوها ؟ والله ما أرانا وجلايب قريش هذه إلا كما قيل : سمّن كلبك يأكلك . أما والله لن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزَّ منها الأذل . وأقبل على من حضره من قومه يحرضهم ويقول لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم .. أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم . وأما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم !! ونمى الحديث إلى النبي عليه السلام ، فأسرع إليه ابن سلول يقسم ويبالغ في القسم أنه ما نبس بحرف منه .

فالخوض في الوشايات والولوغ في الأعراض هو أشبه شيء بأخلاق هذا الرجل الذي مرَّ على النفاق ، وأصبح وأمسى حياته كلها بين الدس والاختلاق ، وله من الوتر العظيم وتر به شفيح عند طبعه السقيم . لأنه أضاع الملك والتاج بظهور الإسلام .

قال أسيد بن حضير زعيم الأوس يسأل النبي عليه السلام ألا يدع المدينة

لعبد الله بن سلول : « يا رسول الله أرفق . فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظّمون الخرز ليتوجوه . فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً » .  
 فلا جرم يكون له غرض أى غرض فى ترويح حديث الإفك واتخاذ مطعناً فى الإسلام من وراء الطعن فى كرامة نبي الإسلام . ولهذا لم يلبث أن أفلتت منه نيته ، فظهرت من بواجر لسانه فى الكلمة التى قالها حين مرّت به السيدة عائشة على جمل يقوده صفوان بن المعطل ، فقد حكى عنه أنه سأل : من هذه ؟ فقيل : عائشة . قال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها !

وإن غرض ابن سلول هذا هو بعينه غرض كل متشبّث بحديث الإفك إلى يومنا هذا ، ليتخذ منه سبيلاً إلى الطعن فى الإسلام ونبي الإسلام ، وبخاصة بين المبشرين من المستشرقين .

فمن هؤلاء من غلب عليه أدب التربية فاستبعد حديث الإفك كما فعل موير Muir حيث قال بعد الإشارة إليه : « إن عائشة قبل الحادث وبعده لتوجب علينا أن نعتقد براءتها من التهمة » .

ومنهم من نقل الحكاية وخططها بالمعجزات التى لا يصدقها غير المسلم . كما فعل واشنطن إرفنج فى سيرة النبي عليه السلام . فلم يقطع بنى صريح ، وترك الباب مفتوحاً للأقاويل .

ومنهم من جاوز الحقيقة فى وصف ما جاءت به الروايات ، فزعم أن السيدة عائشة ابتعدت عن النبي يوماً كاملاً قضته فى صحبة صفوان ، خلافاً لما جاء فى كل قصة نقلت إلينا عن حسدديث الإفك ، ونعنى به روديل Rodwell صاحب ترجمة القرآن ، حيث عرض لهذا الحديث فى حاشية على سورة النور .



وهؤلاء مع هذا هم أشد المستشرقين تقية وحذرا في تعرضهم لهذا الحديث . لكن المبشرين المحترفين لم يتقوا هذه التقية . ولم يحذروا هذا الحذر . بل جزموا بصحة الحديث . وقال بعضهم إن محمداً استنزل الآيات في سورة النور . ليحمي سمعة زوجته . ويدين الوشاة بالعقاب الذي ورد في تلك السورة . وجهلهم بالقرآن هو الذي أوقعهم في تلك الفرية الوضيعة التي يخطئون فيها على غير علم بمصادرها ومواردها . فإن سورة النساء . وهي سابقة لسورة النور . قد نصت على الأربعة الشهود في إثبات الزنا : ( وَاللَّائِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ) .

وآخرون من أولئك المبشرين المحترفين رجعوا إلى تاريخ الغزوة التي جرى بعدها حديث الإفك . ليقولوا إن الليلة كانت غير قراء . وإن البحث عن العقد الضائع فيها عسير . مع أن الاختلاف على سنة الغزوة - فضلا عن شهرها وليلتها - كثير يتراوح بين السنة الرابعة والسنة السادسة وما بعدها . فجاءوا هم وأخذوا بالقول الذي يعجبهم ويعينهم على فريتهم . وهم حتى في هذا مغرضون متعسفون . لأن ابتداء المسير إلى الغزوة في الثاني من شعبان لا يمنع أن الجيش قضى أياماً في ذهابه وإيابه . وعاد واللييلة قراء في صحو البلاد العربية . ولو كان في الأمر محل اعتراض من هذه الناحية لما فات الذين حضروا الغزوة وشهدوا النور والظلام في تلك الليلة . وهم قصاص الأثر وأصحاب القمر في الخل والسفر . وفيهم من يحرص على التشهير كحرص هؤلاء المبشرين .

ومن الإسفاف أن يتبع هؤلاء الوشاة في كل ما خبطوا فيه من إثم . وكل ما رجموا به من ظن . كأن أخلاق الناس وحقائق التاريخ رهن بما يتمحلونه

وَوَقَّفَ عَلَى مَا يَخْتَلِقُونَهُ . وما كانت وشاياتهم تلك بحجًا يستند إلى رأى أو ظنًّا يعتمد على قرينة ، ولكنها كانت كذبًا لا يليق بالمؤرخ ، وسوء نية لا يليق بالإنسان ، وخسة في حق امرأة شريفة لا تليق بالرجل الكريم .

وإنما أوماننا إلى ضروب من تلك الوشايات لنعلم أن الحذر واجب هنا على قدر ضخامة الأعراض التى تخلق الوشاية وتنطلق فى ترويحها إلى أيامنا هذه ، وإلى ما بعد هذه الأيام ، ما دام فى الدنيا أناس يستبيحون أن يحترقوا بالشبهات على امرأة لا ذنب لها إلا أنها زوج نبي يريدون التشكيك فيه .

على أننا من الجهة الأخرى نبرئ السيدة عائشة من هذه المظنة ؛ ولا نعتمد فى التبرئة إلا على الفهم الذى يفهمه المسلم ومن لا يدين بالإسلام ، ويقبله صاحب الدين ومن لا يأخذ بدين من الأديان ، لأن براءتها ليست من الخفاء بحيث لا يقام عليها الدليل إلا من وحى السماء .

وكفى دليلا هنا أن ليس على الظنَّة بها أقل دليل .

\* \* \*

نشأ حديث الإفك بعد عودة النبي من غزوة بنى المصطلق ، وقد كان مسير الجيش فى عودته من هذه الغزوة مضطربًا أشد اضطراب ، لشبوع الفتنة بين المسلمين وأتباع عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين وزعيم الخزرج أقوى قبائل المدينة ، والرجل الذى جامله النبي عليه السلام كل مجاملة كريمة ، فلم يقلع عن نفاقه ، ولم يدع قط فرصة من فرص الكيد والسعاية .

ففى طريق العودة من غزوة بنى المصطلق نجم ذلك الخلاف الذى أشرنا إليه على السقاية من بعض الآبار . فصاح صائح : يا للخزرج ! وصاح الآخر : يا لكنانة . يا لقريش ! وشهر الفريقان السلاح . فخرج النبي غاضبًا لهذه

العصية التي كره أن يحييها الخلاف في جيشه وسأل : ما بال دعوى الجاهلية ؟  
ثم قال : دعوها فإنها منتنة .

واغتنم عبد الله بن أبي الفرصة فطفق يعضاً في النار ويصيح في كل من  
لقيه : « ما رأيت كالיום مَذَلَّةً . والله إني لقد ظننت أني سأموت قبل أن أسمع  
هاتفاً يهتف بما سمعت . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها  
الأذل » . حتى قال لأتباعه : « لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً  
للمنايا فقتلتم دونه - يغني النبي - فأبتمتم أولادكم وقللتم وكثروا . فلا تنفقوا  
عليهم حتى ينفضوا من عند محمد » . إلى آخر ما قال وبلغ النبي عليه السلام .  
وشاع الخبر . فأذن النبي عليه السلام بالرحيل في ساعة لم يكن يرحل فيها  
لشدة الحر . وسأله أسيد بن خُصير : يا نبي الله ! لقد رحلت في ساعة منكرة  
ما كنت تروح في مثلها ؟ فقال : أما بلغك ما قال صاحبكم ! يشير إلى كلام  
ابن سلول .

ثم سار الجيش سيراً حثيثاً . وجعل النبي عليه السلام يضرب راحلته  
بالسوط في مراقها ليستعجلها . وانقضى اليوم وليلته وصدر من اليوم التالي حتى  
آذنتهم الشمس . ثم نزل الناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا  
نياماً .

ولما أخذوا في السير هاجت ريح شديدة كادت تدفن الركب . وخطر  
لبعض الجند أن عيينة بن حصن ربما أغار على المدينة في هذه الغاشية لانقضاء  
مدة المودعة بينه وبين المسلمين . فكان هذا من دواعي العجلة واضطراب  
مواعيد الرحيل .

ثم دنا الليل وهم على مقربة من المدينة . فأناخ الركب للراحة . وذهبت

السيدة عائشة لبعض شأنها . ثم تفقدت عقدها وهي راجعة فإذا به قد انسل منها . فحبسها الخامسة هنية . ثم عادت إلى مكان هودجها فإذا بهم قد احتملوه وهم يحسبونها فيه . لحفتها . وتهيب الجند الذين يرحلون لها أن ينادوها أو يستوثقوا من وجودها .

فأقامت حيث هي . وظنت أنهم سيرجعون إليها لا محالة إذا أحسوا غيبتها . وكان صفوان بن المعطل على ساقه الجيش يتخلف عنه ليلتقط ما يسقط من المتاع . وربما كان النبي عليه السلام يعهد إليه في ذلك . لأنه كان ثقیل النوم فلا يستيقظ حتى يأخذ الجيش في المسير . وقد شكته امرأته إلى النبي لأنه ينام ولا يصلى الصبح قبل طلوع الشمس .

فكان عليه السلام يعلم ذلك منه ويقول له : إذا استيقظت فصل ! وقد يحسن هنا أن نوجه شكوى امرأته إلى بعض معانينا . كأنها أرادت بثقل النوم كناية عن أمر آخر لا تفصح عنه . إذ قيل عن صفوان هذا إنه كان « حصورا » لا يأتي النساء . وسمع وهو يقسم بعد حديث الإفك أنه ما كشف عن كتف امرأة قط .

فلما نهض صفوان ليتبع الجيش في ساقته رأى سواداً على البعد . ثم عرف السيدة عائشة . فجعل يسترجع ويعيد استرجاعه : إنا لله وإنا إليه راجعون : إنا لله وإنا إليه راجعون .. كأنه ينهها بالاسترجاع . لأنه يتهيب التحدث إليها . ثم قرب البعير وقال : أمه . قومي فاركبي . وأخذ بزمام البعير يقوده حتى أدرك الجيش في نحر الظهيرة .

حدث هذا وابن سلول لم يفرغ من دسيسته الأولى التي أزعجت الجيش . وأوقعت الاضطراب في حركاته ومواعيد رحيله ومببته . فسنحت له فرصة

للقليل والقال لا يضيعها الرجل الذى عَزَّ عليه أن تنفضى مشاجرة بين أجيرين على الماء دون أن يثير فيها تلك النائرة الهوجاء . وراح يقول : والله ما نجت منه ولا نجا منها . وأطلق لسانه فى حديث الإفك على الطريق . وبعد العودة إلى المدينة . عسى أن يوقع بين النبى وأقرب الأصدقاء إليه أبى بكر الصديق . أو يفلح فى تشكيك المسلمين فى كرامة نبيهم . أو يقيم بين قومه الخزرج وسائر المسلمين شغباً يقعون فيه عصبيةً له وأنفة من هوانه . فينتقض أمر الإسلام من أوس وخزرج وأنصار ومهاجرين .

قالت السيدة عائشة فى بعض ما روى عنها : « وقد منا المدينة فاشتكت شهراً والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك . ووصل الخبر إلى النبى وإلى أبوى ولا أشعر بشيء من ذلك ، وكان يريبنى أنى لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى . إنما يدخل علىّ فيسلم وعندى أمى تمرضى . ثم يقول : كيف تيكم ؟ ثم ينصرف . فذلك الذى يريبنى . حتى خرجت بعد ما نقهت . فخرجت معى أم مسطح وهى بنت نخالة أبى بكر . وعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت : تعس مسطح ! .. قلت لها : بشس ما قلت : أتسبين رجلاً شهد بدرًا ؟ .. قالت : يا هتاه ! أولم تسمعى ما قال ؟ قلت : وما قال ؟ فأخبرتني بحديث أهل الإفك . فازددت مرضاً على مرضى . ورجعت إلى بيتى . فكثت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع . ولا أكتحل بنوم . ثم دخل رسول الله وقال بعد أن سلم : كيف تيكم . فاستأذنته أن آتى بيت أبوى . وأنا أريد أن أثبت الخبر من قبلها . فأذن لى رسول الله ﷺ . فجئت أبوى ودخلت الدار فوجدت أم رومان فى السفلى وأبا بكر فوق يقرأ . فقالت أمى : ما جاء بك ؟ قلت لأمى : يغفر الله لك .

حَدَّثَ النَّاسَ بِمَا تَحَدَّثُوا بِهِ وَلَا تَذْكُرِينَ لِي مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ؟ قَالَتْ : يَا بَنِيَّة ! هَوْنِي عَلَيْكَ . فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةً قَطُّ وَضِئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يَحِبُّهَا وَلَهَا ضَرْبٌ إِلَّا أَكْثَرَنَ عَلَيْهَا .. فَاسْتَعْبِرْتَ وَبَكَيْتَ . فَسَمِعَ أَبُو بَكْرٍ صَوْتِي فَتَنَزَلَ فَقَالَ لَأُمِّي : مَا شَأْنُهَا ؟ فَقَالَتْ : بَلَغَهَا الَّذِي ذَكَرَ مِنْ شَأْنِهَا . فَقَاضَتْ عَيْنَاهُ . وَبَكَيْتَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَاللَّيْلَةَ الَّتِي بَعْدَهَا . وَأَبَوَايَ عِنْدِي يَظُنَّانِ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقُ كَبِدِي .. فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ وَتَشْهَدُ وَقَالَ : أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ كَذَا وَكَذَا . فَإِنْ كُنْتَ بِرِثَةً فَسِيرْ ثَلَاثَ أَيَّامٍ . وَإِنْ كُنْتَ أَلَمْتَ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتَوْبِي . فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ .. فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دُمْعَى حَتَّى مَا أَحْسَسَ مِنْهُ بِقَطْرَةٍ . وَقُلْتُ لِأُمِّي : أَجِبْ رَسُولَ اللَّهِ ! قَالَ : وَاللَّهِ لَا أَدْرِي مَا أَقُولُ . فَقُلْتُ لِأُمِّي : أَجِيبِي . فَقَالَتْ : كَذَلِكَ وَاللَّهِ مَا أَدْرِي .. ثُمَّ قُلْتُ : لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الْحَدِيثَ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي نَفُوسِكُمْ . فَلَنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بِرِثَةٌ وَاللَّهِ يَعْلَمُ أَنِّي بِرِثَةٌ لَا تَصْدُقُونِي . وَلَنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرِ وَاللَّهِ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بِرِثَةٌ لِتَصْدُقُنِي . فَوَاللَّهِ لَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مِثْلًا إِلَّا قَوْلَ أَبِي يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : فَصَبِرْ جَمِيلًا وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ . ثُمَّ تَحَوَّلْتُ فَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي . وَمَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ فِي شَأْنِي وَحِيًّا يَتْلُو .. وَكُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رُؤْيَا فِي النَّوْمِ يَبْرِئُنِي اللَّهُ بِهَا . وَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَا أَعْلَمُ أَهْلَ بَيْتٍ مِنَ الْعَرَبِ دَخَلَ عَلَيْهِمْ مَا دَخَلَ عَلَيَّ . وَاللَّهِ مَا قِيلَ لَنَا هَذَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ حَيْثُ لَا يَعْبُدُ اللَّهُ . فَيَقَالُ لَنَا فِي الْإِسْلَامِ .. فَأَتَّخِذُ رَسُولَ اللَّهِ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ عِنْدَ نَزُولِ الْوَحْيِ . فَتُسْجَى وَوُضِعَتْ لَهُ وَسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ تَحْتَ رَأْسِهِ . فَلَمَّا سَرَى عَنْهُ إِذَا هُوَ يَضْحَكُ . وَإِنَّهُ لَيَنْحَدِرُ مِنْهُ الْعَرَقُ مِثْلَ الْجَمَانِ .

فجعل يمسح العرق عن وجهه الكريم ، وكان أول كلمة تكلم بها : يا عائشة !  
أما إن الله قد براك . فقالت أمي : قومي إليه . قلت : والله لا أقوم إليه  
ولا أحمد إلا الله . وتناول رسول الله درعي فدفعت يده فأخذ أبو بكر النعل  
ليعلوني بها . فمنعه رسول الله وهو يضحك ويقسم عليه ألا يفعل .. » .

إلا أن النبي عليه السلام قضى فترة من الوقت قبل ذلك وهو في قلق شديد  
لا يدري ماذا يفعل . واستشار الصحابة فقال له عمر بأسلوبه الحاسم : من  
زوجها لك يا رسول الله ؟ قال : الله تعالى ! قال : أفنتظن أن الله دلّس عليك  
فيها ؟ سبحانك ؛ هذا بهتان عظيم . ودعا عليًا وأسامة بن زيد ليستأمرهما في  
فراق أهله . فقال أسامة بن زيد : أهلك يا رسول الله ، ولا نعلم إلا خيرًا ،  
وقال علي : يا رسول الله لم يُضيق الله عليك والنساء سواها كثير . وإن تسأل  
الجارية - يعنى بريرة - تصدقك . فدعا بها وسألها : أى بريرة ! هل رأيت من  
شئ يربيك ؟ قالت : والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرًا أغمضه أكبر من  
أنها جارية حديثة السن تنام عن عجينها فتأقى الداجن فتأكله . وسأل زينب  
بنت جحش وهى أحب نسائه إليه بعد عائشة فقالت : أحمى سمعى وبصرى .  
ما علمت إلا خيرًا . والله ما أكلمها وإني لمهاجرتها ، وما كنت أقول إلا الحق .  
وفى خلال ذلك كان عليه السلام يتأذى بحديث الإفك ، فخطب  
المسلمين . قائلًا : أيها الناس ! ما بال رجال يؤذونى فى أهلى ، ويقولون عليهم  
غير الحق ؟ .. ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيرًا ، ولا يدخل بيتاً من  
بيوتى إلا وأنا حاضر ، ولا غبت فى سفر إلا غاب معى يقولون عليه غير الحق ..  
فقال أسيد بن حضير : يا رسول الله . إن يكونوا من الأوس نكفيكهم ، وإن  
يكونوا من إخواننا من الخزرج فرنا أمرك . فوالله إنهم لأهل أن تضرب

أعناقهم . فوثب سعد بن عبادة وصاح به : كذبت لعمر الله ما تضرب أعناقهم . أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزيج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا . وهم به أسيد بن حضير ، وتساور الناس حتى كادت تكون فتنة ، لولا أن أدركهم النبي بحسن توفيقه .

• • •

هذه خلاصة حديث الإفك بحذافيره كما بقي لنا في مصادره التي يعتمد عليها اليوم كلُّ باحث في موضوع هذا الحديث ، كائنًا ما كان ظنه بالإسلام أو بالنبي وأهله .

وفي وسع القارئ أن يعرف قيمة هذه الوشاية من نظرة واحدة ، فهي على التحقيق وشاية لا قيمة لها عند منصف يلمس من ورائها تربة الكيد والوقعة التي نبئت فيها ، إذ هي تربة وبيئة تنضج بسخائم الخصومة الدينية والسياسية ومساوئ الخبث والكذب والنفاق . وخلق بها أن تبعث الشك في كل حديث ينبت بين طياتها ، ولو زعموا له من الأسانيد والشبهات أضعاف ما زعموا لهذه الوشاية الواهية . وليس لها من سند ولا شبهة إلا أن السيدة عائشة تأخرت في الطريق هنية حين تحرك العسكر على حين فجأة ، وقد كانت الرحلة كلها كثيرة المفاجآت في مواعيد التزول والرحيل .

تلك شبهة لا تكفي للشك في امرأة من عامة المسلمين الخارجين للجهاد في حضرة نبي الإسلام . إذ لو كانت كل امرأة تتأخر في الطريق تؤخذ بالتهمة في دينها وعرضها لكانت التهم في الأعراض أهون شيء يخطر على بال .

بل لو تأخرت كل امرأة في الركب غير السيدة عائشة لجاز أن تلحق بها شبهة من هذا التأخير ، لأن الركب لم تكن فيه امرأة غيرها ، يها بها الموكلون بهودجها



أن ينادوها ليتأكدوا من وجودها ، ولم تكن فيه امرأة أخرى تنهب الرقبة من جيش المسلمين كما تنهبها ، وهي زوج النبي. وبنت الصديق ، وقد كان أبوها يحمل راية المهاجرين في تلك الغزوة بعينها .

وعلى الذى يقبل وشاية كتلك الوشاية الواهية أن يروض عقله على تصديق أمور كثيرة لا موجب لتصديقها ، لأنها تفتقر إلى كل دليل والأدلة على ما يناقضها كثير .

عليه أن يصدق أن صفوان بن المعطل كان رجلا لا يؤمن بالنبي ولا بأحكام الإسلام .

وأن يصدق أن السيدة عائشة كانت - وهي زوج النبي - لا تؤمن به ولا تعمل بدينه .

ولا دليل على هذا ولا ذاك .

بل الأدلة على إيمان صفوان وإيمان عائشة تجرى في كل سياق وردت لها سيرة فيه .

فصفوان كان مسلماً غيوراً ، وكانت غيرته في حادثة الماء التي تصاول فيها المهاجرون وأتباع ابن سلول هي التي عرضته لهجاء حسان بن ثابت ، ولعلها هي التي بغضته إلى ابن سلول ، فتبادى من أجل ذلك في اتهامه ، وقد حضر الغزوات ، ومات شهيداً ولم يذكر قط بسوء .

والسيدة عائشة آمنت بكل كلمة قالها النبي وحفظتها حفظ من يتبرك بها ولا يغفل عنها . ومن إيمانها بصدق هذه الكلمات أنها اشتبكت في خصومات دامية تثير الحفائظ ، وتهون عليها أن تحارب خصومها باختلاق الأحاديث التي تزرى بهم وتبطل دعواهم لو كانت ترتاب في صدق الأحاديث كلها . ولكنها لم

تبح لنفسها قط شيئاً من ذلك ، ولم تذكر حديثاً قط على غير وجهه الذى تؤيده الروايات الأخرى . وقد كانت فى طريقها إلى وقعة الجمل بعد وفاة النبي بزهاء ثلاثين سنة ، فنبحتها كلاب على مقربة من ماء فى بعض الطريق ، فسألت : أى ماء هذا ؟ قال الدليل : هو ماء الحوآب . فأجفلت إجمالة مروعة ، وصاحت بحيث يسمعون أدلاؤها : إنا لله وإنا إليه راجعون ! وضربت عضد غيرها فأناخت ، وأبت أن تتحول عن مكانها . فلما سئلت فى ذلك قالت : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول وعنده نساؤه : ليت شعرى أيتكن تنبحتها كلاب الحوآب ؟ ردوني . ردوني . والله أنا صاحبة ماء الحوآب . وما زال الركب مقباً فى ذلك المكان يوماً وليلة وهى مصرة على الرجعة ، وهم يزعمون لها أن الدليل قد أخطأ ، وأن المكان غير المكان الذى تحشاه ، ولم يزل عبد الله بن الزبير يقنعها ويهدئ من روعها ، وهو ابن أختها وأحب الناس إليها ، وبه تكفى فى أشهر الروايات ، وهى تأبى المسير إلا أن تعود إلى مكة . حتى أرسلوا إليها من يصيح فى الركب : النجاء . النجاء . قد أدرككم على بن أبى طالب . فأذنت لهم فى المسير بها ، وقد أخافتها الصيحة وخامرها الشك فى كلام الدليل هذا وليس معها فى الركب من سامعى ذلك الحديث غيرها ، فكيف تغدر بالنبي زوجة تصدقه هذا التصديق ، ولا تأمن أن ينكشف سرها بوحى من الله ؟ ومن هى تلك الزوجة بعد هذا ؟ هى بنت الصديق الذى لم يوصم بينه بوصمة فى الجاهلية كما قال حتى يوصم بهذه الوصمة الكبرى فى الإسلام ومع نبي الإسلام .

إن أقوى الأدلة لا يحسم الشك هنا فضلاً عن تلك الوشاية الواهية . ويبقى على من يقبلها أن يسأل نفسه بعد هذا : كيف نشأت علاقة صفوان

المزعومة ؟ أفى تلك الليلة بعينها ؟ فكيف اجترأ الرجل على مفاتحة أم المؤمنين وهم يتهيون المنادة عليها في هودجها ؟ بل كيف تخطر له هذه المفاتحة وهو لا يشك في إيمانها بزوجه ، وليس له علم قبل ذلك بخبيثة صدرها ؟ وإذا اجترأ هذا الاجترأ هوساً منه فكيف يصدق العقل أن امرأة النبي و بنت الصديق تكون هكذا لقطة لأول لاقط يصادفها ؟ إن التي تكون كذلك لا يخفى سرّها حتى يكشفه حديث الإفك ويقتصر الحديث فيه على صفوان .

أما إن كانت العلاقة المزعومة قبل ذلك فكيف خفيت بين الضرائر والحساد وقالة السوء من المنافقين ؟ وما أغناها إذن عن المجازفة في الطريق وعن الكارثة التي تنكشف للجيش كله في نحر الظهيرة ؟

كل أولئك سخف لا يقبله إلا من يفترى بوشاية أو بغير وشاية ، وسواء فيه منافقو المدينة ومن يصنع صنيعهم من المؤرخين في العصر الحاضر ، لأنهم لا يؤمنون بنبي الإسلام ، بل هؤلاء أنذل وأغفل ، لأنهم يؤمنون بمرم والمسيح وكان عليهم أن يعصمهم عاصم من هذا الإيمان .

\* \* \*

إن تفنيد حديث الإفك له موضع من كتابنا هذا ، لأنه حادث في تاريخ السيدة عائشة له أثر في الإسلام والشريعة الإسلامية ، وله أثر في ضميرها لم يفارقها طوال حياتها ، وربما كان له أثر في موقفها من تاريخ الإسلام ترتبط به ذيوله على نحو من الأنحاء ، ولولا ذلك كله لما استحق من المؤرخ كبير التفات .

## بعد النبي

عاشت السيدة عائشة بعد النبي ستاً وأربعين سنة ، وتوفيت وهي في نحو السبعين من عمرها ، سنة ثمان وخمسين للهجرة .  
وقد توفى النبي عليه السلام في بيته وفي يوم زيارتها ، ودفن بالمكان الذي كان ينام فيه .

وقد علم كثير من الناس عند اشتداد المرض به أنه مرض الوفاة ، ولكنه كان قد صبحا بعض الصحو قبيل يوم وفاته حتى استأذنه أبو بكر في الخروج إلى بيته بالسبح ، وتفرق المسلمون متفائلين وهم يرجون الخير ويبعدون عن خواطرهم نذير الخوف . فلما قبض عليه السلام بعد ذلك روعت عائشة أيما روع ، وتعاضلها الخطب أن تملك صبرها وهو يموت بين سحرها ونحرها ، فنسيت لهول الساعة ما ينبغي لها أن تستقبل به هذا الوداع الذي لا يتكرر ولا تهونه سابقة وداع مثله : إنها أم المؤمنين التي لبثت السنين بعد السنين تلقنهم ما لقنها من سداد التجميل ووقار الحزن في الملأ . . إذا هي تنسى كل ذلك ساعة فقده ، وإذا هي امرأة والهة بين النساء تلتدم وتضرب وجهها : قالت : « ... وجدت رسول الله ﷺ ينقل في حجرى ، فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول : « بل الرفيق الأعلى من الجنة » قلت : خيَّرت فاخترت ، والذي

بعثك بالحق . وقبض بين سحري ونحري ودولتي ولم أظلم أحداً . فمن سفهي وحداثة سني أنه صلى الله عليه وسلم قبض وهو في حجري ، ثم وضعت رأسه على وسادة وقت ألتدم مع النساء وأضرب وجهي » .

ولم تشهد دفنه عليه السلام بعد وفاته بيومين ، لأن المسلمين كان قد بلغ من تنافسهم في حبه أن يتولى كل فريق منهم مراسم دفنه على ما تعود في بلده وبين أهله ، وكان أهل مكة يسوون قاع القبر وأهل المدينة يقوسونه . فبعث العباس بن عبد المطلب رجلين يدعو أحدهما أبا عبيدة بن الجراح ، ويدعو الآخر أبا طلحة ، وأولهما يصرح كأهل مكة ، والآخر يصرح كأهل المدينة . فعاد صاحب أبي طلحة به ، ولم يعد صاحب أبي عبيدة . فحفر اللحد على طريقة أهل المدينة ، وتولى القائمون على الجثمان الكريم دفنه بعد انقطاع المؤذنين عند هزيع من الليل . قالت عائشة وفاطمة رضي الله عنهما : « ما علمنا بدفنه صلى الله عليه وسلم حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل » .

وما برحت منذ تلك اللحظة تلازم البقعة الخالدة ولا تفارقها إلا للعمرة أو الحج أو لزيارة قريبة ، وقلما كانت تزور .

واتخذت سكنها في الحجرة المجاورة لقبره ، وهي لا تحسب أنها قد فارقت منه غير مشهد جثمانه . فقد كانت تزوره زيارة الأحياء . ودفن أبوها إلى جواره بعد سنوات ، فكانت تزورها كذلك زيارة الأحياء . فلما دفن معها عمر جعلت بعدها ينتقب وتلبس ملابس الحجاب ، وهي تزور أولئك الأصدقاء المتجاوزين ، كأنهم ب قيد الحياة .

وكانت في أوائل العقد الثالث على أكبر تقدير عند وفاته عليه السلام : فعاشت في صحبته زهاء عشر سنين ، وعاشت في ذكراه خمسين سنة ، وحسبنا

من شعور الناس بجلال تلك الذكرى في نفسها أن أحداً لم يخطر له خاطره عن السيدة عائشة تجيز التفكير في حياة زوجية أخرى ، كأنه خاطر حرمة قداسة تلك الذكرى وهيبة ذلك الوفاء ، فضلا عن الحكم بتحريمه في سورة الأحزاب على سبيل التشريع .

ولم تكن حياة السيدة عائشة فارغة في خلال تلك السنين الطوال من لدن فارقتها زوجها العظيم ، وهي تجاوز العشرين ، إلى أن فارقت الدنيا وهي تقارب السبعين . لأنها في حدة نفسها ، ورفعة مكانها ، لا تقبل الفراغ . فما هو إلا أن هدأت نائرة الفتنة بعد وفاة النبي عليه السلام ، وتوفر المسلمون على تحصيل مراجع الدين حتى كانت هي المرجع الأول فيما حفظ عندها من آي القرآن وما حفظته من السنن والأحاديث ، وحتى كان بيتها مثابة الزوار من أبنائها وبناتها ، يدعونها يا أمه ! ومنهم من هي في سن بناته الصغيرات ، ويا له من دعاء محبب إلى الأسماع !

وكانت إذا فرغت من تلقين الأحاديث وجواب السائلين تأوى إلى الصلاة والنسبيح في جوار الضريح . أو تعمل في مهنة البيت ذلك العمل الذي كان النبي عليه السلام يسرها بمساعدتها فيه .

ومن أهم الأشياء التي ينبغي أن تلاحظ في حياة السيدة عائشة بعد النبي عليه السلام أنها قضت خلافة أبي بكر وعمر وهي لا تشعر بأن مكانها في عهد النبي قد تغير ، أو بأن أمراً من أمور السياسة العامة يدعوها إلى التعرض له راضية أو ساخطة . حتى كانت خلافة عثمان فتغيرت هذه الحال ، وكان لتغييرها دلالة كبيرة وأثر كبير .

ففي عهد أبي بكر كانت أمور السياسة العامة تجري على أحكام الدين .

وتركن منه ومن أصحابه إلى سند ركين ، وكان الخليفة أباهما وهو أول من يدعوها بأَمّ المؤمنين .

وفي عهد عمر كانت أمور السياسة العامة تضطرب أو تسكن ، ولكنها في كلتا الحالتين لا تنشعب ولا تؤذن بالصداع . وكان عُمرُ أَهْيَبَ خليفة عرفه الإسلام ، وأحب خليفة إلى عائشة رضى الله عنها . سرت صداقة الأبوين أبي بكر وعمر إلى بنيهما ، فكانت عائشة وحفصة أصدق صديقتين تتفقان وتتكاشفان كلما وقع الخصام في بيت النبي عليه السلام ، وحفظت له أجمل الشكر لموقفه من حديث الإفك حين شاوره النبي فقال له : إن الله هو الذي زوجكها ، وأنه سبحانه وتعالى لم يدلس بها عليك . وتم هذا الشكر حين ولى الخلافة فرعى لها المكانة الأولى بين المسلمين ، وخصّ بيت النبي بالحصّة العليا من الحفاوة والعطاء .

فضى العهدان - عهد أبي بكر وعمر - وليس في الحياة الخاصة ولا في الحياة العامة ما يشعرها بتغيير أو ينزع بها إلى نوازع السياسة ، وما تعرض منها أوجنح إلى التحزيب والتأليب .  
ثم تغيرت الأمور في عهد عثمان .

ولولا هذا التغيير لما عرف للسيدة عائشة نصيب من السياسة العامة بعد موت النبي ، وهو الموقف الذي تحوّلت بها الأحوال إليه بعد اجتناب السياسة العامة قرابة عشرين سنة ، على غير سابقة له في سيرتها الأولى .

## في السياسة العامة

قلنا في فصل سابق إن السيدة عائشة لم تقض حياتها فارغة خلال السنين الطوال التي انقضت بعد وفاة النبي عليه السلام ، « لأنها في حدة نفسها ورفعة مكانها لا تقبل الفراغ » .

فأما حدة نفسها فمن السهل بعد الإمامة يسيرة بمزاجها وتكوينها الذي يشبه تكوين أبيها أن نعرف كيف يتعذر الفراغ على هذه السليقة الحية التي نشط بها المزاج العصبي ولم يقعد بها الترهل والإعياء .

وأما رفعة مكانها فهي أخرى أن تشغلها عن الفراغ مريدة له أو غير مريدة ، لأنها تعودت أن يؤبه لها طوال حياتها ، ولم تتعود قط أن تكون غفلاً في بيتها ، وهي أرفع بيثة بين قومها .

نشأت عزيزة في آلتها وذويها ، عزيزة في بيت أبيها ، عزيزة في أعز البيوت العربية بعد زواجها . فمن الحق لها ولنشأتها ، ومن الواجب لها ولنشأتها أن يؤبه لها طوال حياتها ، وألا يكون فراغها بمثابة الإغضاء عنها .

هذه حقيقة لوالتفت لها ولالة الأمر كما ينبغي في حينها لسلمت السياسة العامة في ذلك الحين من جرائر الخطأ الذي وقعت فيه .

ولا بدع في تقرير تلك الحقيقة ولا في تعظيم خطرها والتنبيه إلى تبعاتها .



فما من دولة قط إلا قد اتخذت لها أصولاً مرعية في سياسة أقطابها ومراسم كبارها وكبيراتها توافق ما لهم أولهن من الشأن في الدولة ، وما يكون لميولهم أو ميولهن من الآثار في السياسة العامة ، أو السياسة العليا على التخصيص . وهي أصول لم تغفل مرة إلا كان لها أثر غير منظور ولا محسوب له حساب في توجيه الأمور .

وقد كانت « أصول » السياسة العليا في معاملة السيدة عائشة ، رعاية لمكانتها وسليقتها ، أن تظل بالمكان الذي يستفاد فيه من عملها وعلمها ، وأن تعرف لها مهمتها الكبرى في تقرير السنة النبوية ، أو تبويب الدستور الإسلامي كما يؤخذ من أحاديث النبي ومأثوراته وعاداته ، في معيشتة وعباداته ، وكان هذا وحده عملاً خليقاً أن يشغل أيام السيدة عائشة على أحسن الوجوه الصالحة لها وللمسلمين وللدولة الإسلامية .

كان هذا واجباً لها وجوب الحق وجوب المصلحة وجوب السياسة وكان هذا الواجب « أصلاً مرعياً » من أصول السياسة العليا أيام أبي بكر وعمر سواء قصداً إليه أو ذهاباً فيه مذهب البداهة ومقتضيات الأمور .. ولكنه خولف أو عدل عنه بعد الخليفتين الأولين . خولف أو عدل عنه لأسباب يرجع بعضها إلى حكومة عثمان ، وبعضها إلى طوارئ الزمن ، وبعضها إلى السيدة عائشة على اختيار منها أو على ما تحولت بها إليه دوافع الأحوال .

\* \* \*

جاء الخطأ الأول في هذه السياسة من القائمين بالأمر في حكومة عثمان ، وكان خطأ عجبياً حقاً ، لأنه لا يفهم على وجه من وجوه المصلحة ، ولا تدعو إليه ضرورة من ضرورات الدولة ، ونعني به نقص العطاء الذي كان مقدوراً

للسيدة عائشة في عهد الفاروق ، أعدل من لاحظ العدل في تقسيم الأعطية على حسب المراتب والحقوق .

إن نقص عطاء السيدة عائشة كان يكون سائقاً عندها وعند المسلمين والمسلمات إذا دعت إليه حاجة في خزانة الدولة ، ولكنه لا يسوغ ولا تستريح إليه النفس والأموال تتدفق على خزانة الدولة بالآلوف التي يحار فيها الإحصاء ، وغنائم أفريقية وحدها تبلغ مليونين ونصف مليون من الدنانير ، فيعطى خمسها لبنت الخليفة وزوجها مروان بن الحكم ، وغير ذلك من القطنع والأعطية التي يُخصّ بها القريبات والقريبون ولا يضبط لها حساب .

إن الغضب من هذا لن يكون غضب الحريص على مال . ولم تكن السيدة عائشة خاصة ممن يحرص على مال أو يبذله في ترف أو يخزنه للمكاثرة والادخار . فما سمع عنها قط أنها أنفقت المال في غير الكفاف من الرزق والإحساس إلى المعوزين وما تركت بعدها بقية تدل على حرص ولا ادخار . ولقد كانت تنكر التزبد من الثراء على الصحابة الأجلاء وإن كان من التجارة والحسب الموروث . فكان عبد الرحمن بن عوف - وهو مثل من أمثلة عدة - وافر الثراء على عهد النبي ، عظيم السخاء في خدمة الدين . ودخلت له غير إلى المدينة فيها سبعمائة بعير تحمل البر والدقيق والطعام ، فارتجّت لها المدينة ، وسمعت رجّتها في بيت عائشة ، فما نجا به من لومها إلا أنه ذهب إليها يشهدا أن العير بأحبالها وأحلاسها وأقتابها في سبيل الله !

فغضب السيدة عائشة من نقص العطاء لم يكن غضب الحريص على مال والطامع في ادخار ، ولكنه كان غضباً عادلاً من غضاضة لا حاجة إليها ولا حكمة فيها ، ولا تستريح إليها النفس بتعليل مقبول .

وشاع. النقد والسخط من ولاية عثمان وحواشيه ، وكثرة القيل والقال في مخالفتهم للدين وتوسعهم في اقتناء الدور والخطام .  
ومثل من الأمثلة العدة في هذا الباب تولية الوليد بن عقبة أخى عثمان لأمه خلقاً لسعد بن أبى وقاص على الكوفة وهو من أعلام الصحابة المحبوبين بين جلة المسلمين .

وكان الوليد متهمًا بالخمر ، وشاع في المدينة أنه أمّ الناس يوماً في صلاة الصبح وهو سكران . فلما فرغ التفت إليهم وقال : هل أزيدكم ؟ فابى أجد في نفسى نشاطاً !

ولم يكن عجباً أن يلجأ الشاكون منه إلى بيت عائشة فيمن لجأوا إليه من كبار الصحابة وهم غير قليلين ، وإنما لجأوا إليها بعد أن قدموا على الخليفة فتبرّمت بهم حاشيته وبرّأوا الوليد عنده مما اتهمه به أهل مصره . فقال لهم : أكلما غضب رجل منكم على أميره رماه بالباطل ؟ لن أصبحت لكم لأنكلن بكم . فاستجاروا ببيت النبی وعائشة فيه .

ثم أصبح عثمان « فسمع من البيت صوتاً وكلاماً فيه بعض الغلظة ، فقال مفصلاً : أما يحذر مرق أهل العراق وفساقهم ملجأ إلا بيت عائشة ؟ فسمعته ، فقليل إنها رفعت نعل رسول الله ﷺ وقالت : تركت سنة رسول الله صاحب هذه النعل ؟ .. وتسامع الناس ففجأوا حتى ملأوا المسجد . فن قائل : أحسنت ، ومن قائل : ما للنساء وهذا ؟ حتى تحاصبوا وتضاربوا بالنعال ، ودخل رهط من أصحاب رسول الله على عثمان وناشدوه الله أن يعزل أخاه .  
ولم يكن من شأن هذه السياسة من حاشية عثمان أن تكف السيدة عائشة عن نقد الولاية وقبول الشكاة . بل قربت هذه السياسة بينها وبين اللاجئين إليها . فلما

شكا الناس من والى عثمان - في مصر - عبد الله بن أبي سرح - واتهموه رجل من شكوه إلى الخليفة فرعت وفود المصريين إلى بيت عائشة فأرسلت الخليفة تنذد بواليه وتقول له : تقدم إليك أصحاب رسول الله وسألوك عزل ها الرجل فأبيت ، فهذا قتل منهم رجلا فأنصفهم من عاملك .

وجعل وفود المصريين يلقون المصلين بالمسجد في أوقات الصلاة ، ويسطون لهم ظلامتهم وشكايتهم إلى أم المؤمنين وكبار الصحابة ، فألحف كبار الصحابة على الخليفة في إنصافهم . وأثمرت غلطات الحاشية ثمرتها في توجيه الشاكين إلى طلب المزيد من حماية أم المؤمنين ، فاختاروا محمد بن أبي بكر - أخاها - ليخلف عبد الله بن أبي سرح حين خيرههم الخليفة فيمن يؤثرونه للولاية بعده . ووقعت الطامة بعد ذلك بتدبير لا تعلم جليلة حتى الآن ، وإنما الرأي الراجح أنه من تدبير مروان بن الحكم على غير علم من عثمان ونصحائه المخلصين .

ذلك أن الوفود القافلة إلى أمصارها عثرت في طريقها بغلام يحمل كتاباً في أنبوبة من رصاص وفيه إنه « إذا أتاك محمد بن أبي بكر ومن معه فاحتل في قتلهم وأبطل كتابه وقر على عملك حتى يأتلك رأيي في ذلك إن شاء الله » . فأعقب هذا الكتاب ما لا بد أن يعقبه من الأثر في نفوس الصحابة ، وفي نفس السيدة عائشة ، وفي نفوس الوفود المتجمعة من الأمصار ، وقذف بالفتنة القائمة يومئذ في طريق غير مأمون .

وظاهر من هذا العرض السريع أن اختلال الأحوال في عهد عثمان هو الذي تحول بالسيدة عائشة عن موقفها الأول من حكومة أبي بكر وعمر إلى موقف الاشتراك في السياسة العامة والمجاهرة بالنقد الشديد لحكومة عثمان وولاة عثمان وحاشية عثمان .

بل هو الذى جعل لها مهمة تطلبها وتسعى إليها ، وهى مهمة الوساطة بين الشعب والخليفة أو مهمة الحماية لمن يجهرون بالشكوى ويخافون عقابها .  
فلولا الحق الذى اشتهرت به حاشية عثمان لما تركت السيدة عائشة فى مكانها العليا من الأمة الإسلامية ، وهى تشعر أنهم قد أنزلوها من الرعاية والمبالاة دون منازل بناتهم وزوجاتهم وأصحاب القرابة والزلفى لديهم .  
ثم تمادى الأمر فلم يقبلوا من المسلمين أن يلوذوا ببيتها ويقزعوا إلى جوارها ، ولوتناولوا الأمر بالرق لا استفادوا من لياذهم بذلك البيت وقزعهم إلى ذلك الجوار .

وكانت الطامة الكبرى أن تأتمر الحاشية الحمقاء بحياة أخيها ، وتنفذ إلى مصر من يأمر واليها بقتله وهو قادم من قبل الخليفة لولاية الحكم فيها .  
ومن الحق عندنا أن الخليفة نفسه براء من هذه الدسيسة التى يتورع عنها مثله فى برّه وتقواه . فإن الرجل الذى تورّع عن إهراق قطرة دم فى سبيل الدفاع عن حياته ، والخطر محقق به من جميع جهاته ، لن يأمر بسفك دم ابن صديقه وزميله ، ولا ذنب له إلا أن الشاكين نديبه للولاية حين سألهم عمن يختارونه فأجابهم لما نديبه إليه .

ولكن ما الذى أصاب الجاني المدبر للدسيسة ؟ ولم نجا من العقوبة ؟ ولم لم يكتشف للملأ لولا أنه من رجال الحاشية ، وأن رجال الحاشية هم الذين ستروه وأنفذوه ؟ وماذا لو أن الغلام الذى كان يحمل الأمر بالقتل وصل إلى مصر ولم يعترضه الشاكون فى الطريق ؟ ألم يكن القتل نافذاً فى محمد بن أبي بكر كأن الكتاب قد صدر من الخليفة بغير خلاف !

فهذه الحاشية الحمقاء قد بدأت بالغض من مكانة السيدة عائشة لغير

ضرورة محتومة ولا حكمة مفهومة ، وانتهت بالتآمر على قتل أنحيا لغير ذنب جناه ، وسلكت في خلال ذلك مسلكاً تأباه السيدة عائشة من الحاكمين وغير الحاكمين ، وهو مسلك الإسراف والتهالك على الخطام .

فغير عجيب أن يكون للسيدة عائشة موقف عداوة من تلك الحاشية ، وأن تنادى على رأس المنادين بتبديل حكمها وتأليب الناس عليها ، وأن تضيق ذرعاً بعثمان لأنه يمضى حيث مضت تلك الحاشية في جنفها وغلواتها .

قيل إنها تربصت به حتى أقبل بخطب الناس فدلّت قيصر النبي ونادت : « يا معشر المسلمين ! هذا جلياب رسول الله لم يَبْلَ وقد أبلى عثمان سته » . ولم تذكر الحاشية الحمقاء مكانة السيدة عائشة وأمان جوارها وما يُرجى من الخير في شفاعتها إلا بعد فوات كل فرصة وضياح كل أمل واستعصاء كل تدبير . فلما حوَصر عثمان وحيل بينه وبين الزاد والماء ذهبت أم حبيبة إلى داره ، وهي زميلة للسيدة عائشة من أمهات المؤمنين - فاعترض الثوار بغلتها ، وكانت معها إداوة ماء تخفيها . قالوا : ما جاء بك ؟ قالت : إن وصايا بني أمية عند هذا الرجل ، فأحييت أن أسأله عنها لئلا تهلك أموال الأيتام والأرامل ! وكانت أم حبيبة أموية من آل أبي سفيان ، فاجترأ الثوار عليها وقالوا : كاذبة ؟ وقطعوا جبل البغلة بالسيف ، فنفرت وكادت تسقط عنها ، فتلقاها كرام الناس فأخذوها وذهبوا بها إلى بيتها .

وكانت السيدة عائشة قد كرهت المقام بالمدينة ، وهي على هذه الحال من الفتنة الطاغية ، فتجهزت للحج واستصحبت أخاها محمداً فأبى وتخلّف بالمدينة .

عند ذلك لجأ مروان بن الحكم - وهو رأس البلاء - إلى جوار السيدة

عائشة التي كان يغري عثمان بها لاحتفاء الناس ببيتها ، فقال لها : يا أم المؤمنين ! لو أقت كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل .. فقالت : أتريد أن يصنعوا بي كما صنعوا بأم حبيبة ثم لا أجدر من يمنعني ؟ لا والله ولا أعير ولا أدرى إلى ما يسلم أمر هؤلاء .

وفي رواية أخرى أن مروان هذا تذكر الجود بالمال في ذلك المأزق الميثوس منه ، فذهب إلى السيدة عائشة يستبقها لتصلح الأمر فقالت : قد فرغت من جهازي وأنا خارجة للحج .. قال عندئذ : فيدفع لك بكل درهم أنفقته درهمين ، فلم تملك عائشة نفسها على ما جاء في هذه الرواية أن تقول : « لعلك ترى أنني في شك من صاحبك ! أما والله لو ددت أني أطيق جملة فأطرحه في البحر ! » .

وليس أكثر ولا أغرب من الأحاديث التي نسبت إلى عائشة في خلال هذه الفتنة قبل خروجها من المدينة وبعد خروجها منها . وأشد هذه الأحاديث وأقساها . أن بعضهم سمعها تقول . « اقتلوا نعثلاً فقد كفر » ، وأنها كانت تسأل من تلقاه أن يخذل الناس عن عثمان وشيعة عثمان . فأما الصحيح من هذا كله فهو أنها كانت تنقم من حكومة عثمان وتتمنى لها الزوال .

ويجوز الشك بعد ذلك في كثير من نصوص الأحاديث التي نسبت إليها بصدد هذه الفتنة . لأن بني أمية مثلوا بأخيها محمد بن أبي بكر عند دخولهم مصر أبشع تمثيل . فقتلوه ظمآن ، ووضعوه في جوف حمار ميت ، ثم شؤوه . وهذا بعد أن جروه من رجله في أسواق مصر ، وأشهدوا على مثلته السفلة والصبيان . ثم أرسلوا قيضه الذي قتل فيه وهو بدمه إلى المدينة . فلبسته نائلة زوجة عثمان

ورقصت به ، وشوت أخت معاوية بن حديج خروفاً وأهدته إلى السيدة عائشة - في ذلك العيد - وهي توصي الرسول أن يقول لها : هكذا كان شئ أخيك ؛ فما أكلت السيدة عائشة بعدها شيئاً قط ، وأقسمت لا تأكله حتى تلقى الله .

فلما تسامع المسلمون بأنباء هذه المثلة الشنعاء غضبوا للسيدة عائشة أن يشمت بها ولاية الدولة الجديدة هذه الشماتة ، وخاف الأمويون من جرائرها ، وندم عقلاؤهم على ما كان من سفهائهم ، واحتاجوا إلى المبالغة في تشويه نصيب عائشة من فتنة عثمان ، فأضافوا بألسنتهم وألسنة أتباعهم وصنائعهم أقاويل وأباطيل تمتزج بما نسب إلى السيدة عائشة ، فلا يعرف منها الخالص والمشوب ، ولا يسهل النفاذ من بينها إلى موقع المبالغة والتلفيق .

وخلق بنا أن نزداد حذراً من هذه المبالغات على قدر أصحاب المصلحة في قبولها . وقد اتفق على تكبير نصيب عائشة من التحريض على عثمان مصدران متناقضان ، وهما مصدر ، أصحاب معاوية ، ومصدر الشيعة أصحاب علي ؛ يريد الأولون ما قدمناه من تخفيف وزرهم في المثلة بأخيها والحيف عليها ، ويريد الآخرون أن يطلوا موقفها من مطالبة عليّ بدم عثمان ، وأن يشتبوا براءة عليّ من دم الخليفة القتييل ومشاركة عائشة في هجمة قاتليه . فضلاً عن مصلحة القاتلين أنفسهم في التعلل بهذا السند الذي يعفيهم من لوم كثير .

\* \* \*

كذلك بدأت السيدة عائشة مشاركتها الأولى في السياسة العامة وهي إلى الاضطرار أقرب منها إلى الاختيار .  
أما مشاركتها الثانية فقد كان اختيارها فيها أكثر من اضطرارها ، فإنها تلقت



خلافة على من مبدئها بالسخط والمقاومة ، وأذنت لبعض الطامحين إلى الخلافة أن يتسلوا بجاهها ويشركوها معهم في خصوماتها ، وكان أكرم لهم ولها لو أنهم جئوها هذه الخصومة وأنزلوها بحيث يعتصم بها الفريقان ، ويستوى في جبرتها العسكران ، فتركوا لها مندوحة للمراجعة يوم دعاها الدعاة بعد تفاقم الفتنة إلى السعى بينهم بالتوفيق .

وأصوب ما قيل في هذا المعنى مقال ذلك الفتى السعدى الذى تصدى للزبير وطلحة فقال لها : أما أنت يا زبير فحوارى رسول الله ، وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله بيدك ، وأرى أم المؤمنين معكما فهل جئنا بنسائكما . نعم لقد أصاب ذلك الفتى من بنى سعد حين أقام الحجة عليهما بهذا السؤال الذى يغنى عن كل جواب ، فما من أحد يلومها أن يوافقا السيدة عائشة في الرأى أو توافقها فيه ، وإنما الملام الذى لا يحصى عنه أن يتجاوزا النداء برأىها إلى الخروج بها في حومة قتال ، وهما لم يخرججا إليها بالمحارم والأزواج . كانت في طريقها إلى مكة يوم لقيت ابن عباس موفداً من قبل عثمان ليتلوا على الحجاج كتابه ، ويطلب النصفة بينهم وبين النافرين عليه ، فافترحت عليه أن يخذل الناس عن عثمان ، وأن يشككهم فيه ، ورشحت للخلافة طلحة بن عبيد الله ، لأنه « اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح . فإن يكر الخلافة يسر بسيرة ابن عمه أبى بكر رضى الله عنه » .

قال لها ابن عباس : يا أمه ! لو حدث - أى اعتزال عثمان - ما فزع الناس إلا إلى صاحبنا . قالت : إيهنا عنك . لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك . وألفت نفسها في مكة بين العثمانية والأموية يوم نزلت بها قبيل مقتل عثمان : فعن لها أن ترجع إلى المدينة لتدرك الأمر قبل فواته ، ولكنها سمعت في الطريق

بيعة على فقالت فيما رواه عبيد بن أبي سلمة وهو من نحوولتها : ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك . مشيرة إلى السماء والأرض ، ثم صاحت بركبها : ردوني ! ردوني ! وجعلت تتوعد في الطريق : أن تطالب بدم عثمان .. فقال لها عبيد بن أبي سلمة : ولم ؟ والله إن أول من أمال حرقه لأنت ! قالت : « إنهم استتابوه ثم قتلوه . وقد قلت وقالوا . وقولي الأخير خير من قولي الأول » .

وما لبثت في مكة قليلاً حتى تجمع فيها كل ناظم على علي بن أبي طالب من أعدائه ومنافسيه ، فقصت أيامها بمكة بين العثمانية والأموية والولاءة الذين أحسوا بزوال الدولة والثروة ، الذين أوجسوا من حساب الخليفة الجديد ، ولحق بهم طلحة والزبير ، وكلاهما طامح إلى الخلافة ، يائس من الأنصار في المدينة . فاتفقوا جميعاً على كلمة واحدة لا اتفاق بينهم فيما عداها . وهي المطالبة بدم عثمان ، لأن المطالبة به تغنيهم عن القدر في الخليفة الجديد ، وليس الاتفاق على القدر فيه بمستطاع . لذلك ارتفعت الصيحة بدم عثمان .

وفي هذه البيئة غلبت على السيدة عائشة نية الخروج إلى البصرة بتلك الدعوة التي اتفقوا عليها ، وأكبر الظن أنها كانت وشيكة أن تحجم عن الخروج إليها لولا غلبة البيئة واجتماع الأصوات من حولها على نداء واحد . فإنها ما عتمت في الطريق أن صدمت أول صدمة حتى همت بالرجوع ، ثم أصرت عليه لولا احتياهم في إقناعها بمختلف الحيل .

عبروا بماء الخوآب فنبحتهم كلابه ، وسألوا أي ماء هذا ؟ فقال الدليل : هذا ماء الخوآب . فصرخت بأعلى صوتها قائلة : إنا لله وإنا إليه راجعون ! إني سمعت رسول الله ﷺ يقول وعنده نساؤه : ليت شعري أينكن تنبجها كلاب

الحوَّاب ؟ ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته وهي تقول : أنا والله صاحبة كلاب الحوَّاب طروقاً . ردوني . ردوني . وأقامت يوماً وليلة لا ترم مكانها ، حتى جاءوا لها بخمسين رجلاً من الأعراب رشوهم فشهدوا أنهم جازوا الماء ، وقالوا لها : مهلاً يرحمك الله فقد جزناه . ثم صاح عبد الله بن الزبير : النجاء النجاء . فقد أدرككم على بن أبي طالب فأذنت لهم في المسير بعد امتناع شديد .

\* \* \*

ونعتقد أن وقفها عند ماء الحوَّاب لم تكن آخرة التردد من جانبها في أمر القتال . فإننا في الواقع لم نقرأ بين أخبار وقعة الجمل المتشعبة خبراً واحداً يتم على عزمة قتال مبيته لغرض مرسوم . ويؤخذ من كلامها لأبي الأسود الدؤلي حين أشخصه إليها عامل على بالبصرة ، أنها كانت تستبعد خروج أحد من المسلمين لقتالها . فقد سأله : أفتظن يا أبا الأسود أن أحداً يقدم على قتالي ؟ وكان أبو الأسود رجلاً صعب المراس في نصره على فأجابها . والله لتقاتلن قتالاً أهونه الشديد . وكان مما قاله لها قبل ذلك : ليس على النساء قتال ، ولا هن الطلب بالدماء ، وإن علياً لأولى بعثمان منك وأمسرحماً ، فإنها أبناء عبيد مناف . ولم تزل بالبصرة على هذا التردد كلما اشتبك اتباعها وأتباع عثمان بن حنيف وإلى على عليها . فتحاجزوا عن الحرب غير مرة في المربد وفي دار الرزق ، ونادى أصحاب عائشة بالكف عن القتال بعد أن تورط فيه الفريقان بدار الرزق نهراً كاملاً من الصباح إلى الغروب كثر فيه القتلى والجرحى من الجيشين .

ثم أنفذ على بن أبي طالب رسوله القعقاع بن عمرو إلى طلحة والزبير وعائشة ، فبدأ بعائشة وسألها : أي أمه ! ما أشخصك ؟ وما أقدمك هذه البلدة ؟ قالت : أي بني . الإصلاح بين الناس . قال : فابعثي إلى طلحة والزبير

حتى تسمعي كلامي وكلامها . فبعثت إليهما . فجاءا . فقال لهما : إني سألت أم المؤمنين ما أقدمها فقالت الإصلاح بين الناس . فما تقولان أنتما ؟ أمتابعان أم مخالفان ؟ قال : متابعان ، قال : فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح ؟ فوالله لأن عرفناه لنصلحن ، ولئن أنكرناه لا يصلح . فذكرا قتلة عثمان وحكم القرآن . قال : لقد قتل بالبصرة ستائة رجل فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم ، وطلبتم حرقوص بن زهير فمنعه ستة آلاف . فإن تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون ، وإلى قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوها عليكم ، فالذي حذرتم أعظم مما تراكم تكرهون ، وإن أنتم منعتم مضر وربيعة من هذه البلاد اجتمعوا على حربكم وخذلناكم نصرة لهؤلاء . . فسألته عائشة : فإذا تقول أنت ؟ قال : إن هذا الأمر دواؤه التسكين . . فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بشار ، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا المال . فأثروا العافية ترزقوها ، وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم ، ولا تعرضونا للبلاء فتعرضوا له ، فيصرعنا وإياكم . قالوا : قد أصبت وأحسن ، فارجع . فإن قدم على وهو على مثل صلح الأمر . ثم أقر على وساطة رسوله ، وأشرف القوم على الصلح لولا أحبط هذا المسعى بسفاهة السفهاء من العسكرين ، فترامى هؤلاء وهؤلاء وجمعت الفتنة بجاحها الذي خرجت به من أعنة الرؤساء .

ولم ييأس الفريقان بعد هذا من وساطة الصلح ، ولم يكن التردد من شأن عائشة وحدها ، بل كان أنصارها جميعاً يترددون ولا يستقرون على صنع . وقد قال لها الزبير يوماً : ما كنت في موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمرى غير موطنى هذا . قالت : ما تريد أن تصنع ؟ قال : أريد أن أدعهم وأذهب .

وربما تقابل الحصان وجهًا لوجه فتناصحا على مسمع من العسكرين تناصح الإخوان .. نادى علىّ خصمه الزبير يومًا : يا زبير ارجع . فقال : وكيف أرجع الآن وقد التقت حلقتا البطان<sup>(١)</sup> ؟ وهذا والله العار .. قال علىّ : يا زبير ! ارجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار . فرجع . وأهاب به ابنه عبد الله يستثيره : أحسست رايات ابن أبي طالب ، وعلمت أنها تحملها فتية أنجاد ؟ قال : قد حلفت ألا أقاتله . قال : كفر عن يمينك وقاتله .

وبينا هم في تقديم وتأخير ومشاورة ومثاورة أقبل كعب بن سور إلى عائشة فقال لها : أدركي . فقد أبي القوم إلا القتال . لعل الله أن يصلح بك . فركبت وألبسوا هودجها الإدراع . وتعالى الضجة من هنا وهناك . فسألت : ما هذا ؟ قالوا : ضجة العسكر . قالت : بخير أو بشر ؟ قالوا : بشر . إذ كان القتال قد نشب بين الفريقين من تصارع الغوغاء وتدافع الغلاوة وإفلات الأعنة من الرؤساء .

ويبدو لنا من جملة الوقائع أن حملة الجمل كانت حملة اندفاع ، ولم تكن حملة تدبير وتقدير ، ولا كان أحد من دعائها يملك زمامها ويتجه به إلى مصير معروف .

وإلا فما يكون ذلك المصير ؟ إن أصحابها لم يريدوا بها أن يفسدوا الأمر على علىّ ابن أبي طالب ليصلحوا لمعاوية ، فليس منهم زعيم من حزبه والعالمين لدولته .

ولم يتفقوا على ولاية واحد منهم بعد هزيمة علىّ إن تمت هذه الهزيمة ، وليست هي بالمركب الذلول .

(١) البطان : حزام الدابة ، والتقاء الحلقتين كناية عن التهيؤ للركوب والمسير .

إنما هي حملة تهويل إلى المقاسمة في الأمر على وجه من الوجوه التي أشاروا إليها قبل مفارقتهم المدينة : فيتولى بعضهم العراق وبعضهم اليمن ، ويصبح الأمر شركة أو « شورى » بينهم وبين الخليفة ، على قولهم الذي عبروا به عن طلب الولاية في بعض الأحاديث بينهم وبينه .

وفهم الحملة كلها على هذا الوجه أقرب ما نراه لفهم السيدة عائشة في موقفها من القتال ومن السياسة العامة على الإجمال .

نعم ، إن فهم مأساة الجمل هي وسيلتنا إلى فهم السيدة عائشة ، لأننا نعرف مصادرها ومواردها ومبلغ الأخطار المنظورة من ورائها عند الهجوم عليها ، فنعرف النية التي جنحت بالسيدة عائشة إلى الدخول فيها ، وهي كل ما يعيننا من تاريخ تلك المأساة في هذا السباق .

والذي يبدو لنا من تلك الحوادث التي لخصناها فيما تقدم أن مأساة الجمل لم تكن عند السيدة عائشة إلا دفعة من دفعات الحدة التي طبعت عليها ، قدحنتها المفاجأة وأوقدتها كثرة المغريات بعداوة على في بيئة لم يرتفع فيها صوت لغير أعدائه ، ومهدت لها حوادث الماضي تمهيدا الذي رسم لها الوجهة واندفع بها على هذه الخطوة دون غيرها .

فن تمهيد الحوادث الماضية أن طلحة والزبير وعليًا لم يكونوا غرباء عن السيدة عائشة ، ولم تكن هي غريبة عنهم بميولها وسابق شعورها .

فطلحة من بنى عمومتها ومن بنى تيم قبيلتها وقبيلة الخليفة الأول الأول أبيها . والزبير زوج أختها أسماء ، وابنه عبد الله ابنها الذي اختارته لكنيتها في بعض الروايات ، فكانت تكنى من أجله بأُم عبد الله .

وعلى أقرب الناس إلى بيتي النبي ، وزوج ابنته ، وأبو حفصه ، وصاحب

الرأى الذى لا ينسئ فى حديث الإفك ، وهو نصيحته للنسبى بتطليقها .  
ومن الحق أن نقول إن الشعور الذى تكته السيدة عائشة لعلئ من جراء هذه  
النصيحة شعور طبيعى لا غرابة فيه .

فلا ريب أن علياً رضى الله عنه قد أخطأه التوفيق فى تلك النصيحة . إذ لم  
يكن من الإنصاف أن تطلق عائشة لشبهة لغط بها المنافقون وطلاب الوقعة بين  
النسبى وأصحابه ، ولن يفهم الناس من تطليقها إلا أن النسبى قد أدانها وأنف  
من معاشرتها ، ولن يصيبها ذلك وحدها بل يلصق بها وبأبيها وآلها وصمة  
لا تمحى فى زمانها ولا بعد زمانها ، وقد يتعدى الأمر عائشة وآلها إلى الإسلام  
أكله ، فيتخذ المنافقون من صدق حديثهم الذى أفكوا به مطعناً فى صدق الدين  
ونبيه ، وهذا كله إلى أن الإدانة بمثل تلك الشبهة لا توافق التحرز الشديد الذى  
قضى به الدين فى هذه القضايا ولو مسّت من هنّ دون عائشة فى القدر والثقة .  
لما نحسب علياً قدسها عن هذا كله وهو ينصح إلى النسبى بتلك النصيحة إلا  
لفرط الغيرة على تنزيه سمعة النبى وبيته ، واستكباره فى هذا الصدد أن يقال  
ما يقال ولو لم يكن ثم برهان على ما قيل .

وما من أحد يجهل الشعور الذى تقابل به النساء نصيحة كتلك النصيحة .  
فأقل ما يقال إنه شعور لا غرابة فيه .

ثم هاهى ذى مسألة الخلافة والترشيح لها من بين عظماء الصحابة الذين  
بقوا على قيد الحياة بعد موت أبى بكر وعمر وعثمان ، ومن هؤلاء الصحابة على  
وطلحة والزبير . وكلهم قد نذبوا للاجتماع فى بيت عائشة لاختيار واحد منهم  
للكخلافة ، وقال لهم عمرو بن عبد الله : « إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم  
ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله وهو عنكم راض ، وإني

لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ، ولكن ما أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم ، فيختلف الناس . فانهضوا إلى حجرة عائشة فتشاوروا واختاروا رجلاً منكم » .

وكان جائزاً أن يقع الاختيار في بيت عائشة على طلحة أو الزبير ، لأنها وكيلان من وكلاء الشورى .

ثم انقضت خلافة عثمان وتجددت المسألة كرهة أخرى على النحو الذي شهدته عائشة قديماً في بيتها . فمع من يكون شعورها ؟

إن طلحة والزبير مرشحان للخلافة منذ اثني عشرة سنة ، وقد تكرر اختيار الخليفة من غير بني هاشم حتى أصبح في رأى بعضهم كالعرف الذي يجري عليه التقليد . وليس لعل سند قاطع من القرآن أو السنة يبطل ذلك العرف ويسقط حجة طلحة والزبير . فإذا كانت السيدة عائشة أميل إلى فريق طلحة والزبير بشعورها وسابقة رجائها فليس ذلك - كما أسلفنا - بغريب ولا بمخالف للمعهود في طبائع الناس .

على أننا لا نريد بما تقدم أن نسوِّغ موقف السيدة عائشة من وقعة الجمل وخصومات الخلافة ، وإنما أردنا تفسير شعورها على الوجه الذي لا غرابة فيه ، ولم نرد تسويغه في نظر العقل ولا في نظر التاريخ . فعلىّ قد أخطأه التوفيق في نصيحته .

وعائشة قد أخطأها التوفيق في مكافحته من أجل هذه النصيحة ، وإن كانت لا تلام على أنها كانت تتمنى الخلافه لسواه .

ولكننا إذا ذكرنا هذا كان علينا أن نذكر معه أن السيدة عائشة ندمت على موقفها من يوم الجمل أشد ندامة ، فكانت تقول بقية حياتها : ليتني مت قبل



يوم الجمل ، وقالت مرة : ليت كان لى من رسول الله ﷺ بنون عشرة  
وثكلتهم ولم يكن يوم الجمل . وكانت كلما خاض الناس فى حديث ذلك اليوم  
تبكى حتى تبل خمارها .

وعليها أن نذكر أنها صانت خصومتها عن كل كلمة نائية فى حق على  
رضى الله عنه ، فلم تتهمة بدم عثمان ، ولم تتجاوز بالتهمة بعض من بايعوه .  
وقالت عنه غير مرة إنه الصوام القوام ، وإنه أحب الناس إلى رسول الله .  
وعليها أن نذكر أن المغريات بالاندفاع فى هذه الغاشية كثيرة : حدة فى  
الطبع ، ومفاجأة تبتدر الحدة ، وبيئة مطبقة بالعداء لعللى ، وسعى حثيث من  
أقرب الناس إليها وأقربهم إلى إقناعها .

وإنها مع هذا أقدمت على مورد مبهم لا يتضح الشرف فيه ، وترددت هنالك  
بين إقدام وإحجام ، واعتقدت أن الأمر لا يفضى إلى قتال . وأصغت إلى دعوة  
الإصلاح ودعت إليه . وهو حادث لا بد له من عبرة .  
وإن عبرته لأحق عبر التاريخ الإسلامى بالتسجيل .

## حقوق المرأة

في حياة السيدة عائشة ميزان صادق لحقوق المرأة في عصرها ، وقد يقاس عليه الميزان الصادق لحقوق المرأة في جميع العصور .  
فالحياة البيئية وما يتصل بها من حياة التربة والتعلم ومعونة الرجل في واجباته العامة هي خير ماتتولاه المرأة من الأعمال .  
والسياسة - ولا سيما السياسة في عصور الاضطراب - هي المجال الذي يحسن بها اجتنابه ولا يرجى لها التوفيق فيه ، وقد تؤدي فيه هنالك الخير إذا التزمت منه جانب المسالة وكانت لها وسيلة إليها . أما جانب الرئاسة والإشراف فلا طاقة لها به ، ولا يتأني لها أن تتولاه إلا إذا نقلت إليه شؤون البيت ومزجه بما يهمها من أواصر القرابة والمعيشة الزوجية .  
فالسيدة عائشة كانت ربة بيتاً وشريكة زوجها ، وكان زوجها العظيم يعينها في شئونه ويكون في مهنة البيت ما دام فيه .  
وكانت هي تعينه على شئون الهداية والإصلاح كلما وسعته المعونة فيها ، وقد لقنت الناس ماتلقنته منه فأحسنن التلقين .  
وهذا في جملته هو قوام الحقوق بين الجنسين .  
ولكنها على ذكائها وعلمها ، وعلى أنها في بيت الرئاسة نشأت ، وفي بيت

الرئاسة عاشت ، وأنها تعودت أن يؤبه لها وتسمع كلمتها ، قد تحولت بها طوارئ العصر إلى السياسة العامة ، فكانت فيها طوعاً لأواصر البيت ودواعي المودة والنفور التي توحىها ، ولم تكن مثلاً يقتدى به في توجيه الأمور العامة كما كانت مثلاً للنساء كافة وهي ربة بيننا وشريكة زوجها .

بل هي قد كانت أول مثل يستشهد به المستشهد على صواب الحقوق التي عرفها الإسلام للنساء : ( ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ) .

فلم تأت العصور بعد ذلك بإنصاف للمرأة أصوب من هذا الإنصاف . فليس المهم أن تساوى الرجل في كل شيء وأن يكون لها مثل حقوقه ومثل واجباته . لأن المائلة مع الاختلاف ليست هي الصواب وليست هي الإنصاف . ولكن المهم أن تكون حقوقها مساوية لواجباتها ، وأن يكون لها مثل ما عليها ، وألا تظلم في حياتها الخاصة والعامة شيئاً ، ولا يفوتها عمل تصلح له وتحسن أدائه وتغنى فيه غناء الرجل ولا يغنى فيه الرجل غناها . وقوام ذلك كله أنهن ( لهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ) .

وهي الدرجة التي ينفرد بها الرجال حيث تبطل المشاركة في الملكات والأعمال .

وإنما كان هذا قوام الإنصاف في حقوق الجنسين لأنه حكم قائم على الواقع الذي لا يتغير اليوم ، ولم يتغير قط ، ولن يتغير في الغد مهما تتغير أحكام الشرائع وأقاويل أصحاب الأقوال والآراء .

وكل حكم قائم على إنكار الواقع أو المغالطة فيه جهالة تنكشف لا محالة في

يوم من الأيام . وإن لم تتكشف كانت كالداء المكتوم أو بل ما يكون وهو مجهول والواقع أن الرجل والمرأة مختلفان .

وأن اختلافها حقيقة علمية . وحقيقة تاريخية ، وحقيقة حسية ، وحقيقة تعرف بالعقل والبداهة .

فالمرأة تخالف الرجل في وظائف الغدد وفي تكوين الأعضاء وفي شواغل لدوق والإحساس .

والمرأة تخالف الرجل في أعمالها وتكاليفها منذ القدم في جميع الشعوب ، ومن قال إن هذه المخالفة من فعل الرجال وسيطرتهم وليست من فعل الطبيعة وسيطرتها فقد قال إنها من فعل الطبيعة وليست من فعل الرجال .

والمرأة تخالف الرجل في القدرة حتى حين تشاؤكه في العمل الذي نفردت به منذ زمن طويل ، فهي منذ زمن طويل تزاوّل الطهي والخياطة والتجميل والولادة وتندب الموتى وتشيعهم بالبكاء والتعديد ، ولكنها لا تبلغ شأؤ الرجل في هذه الصناعات إذا وقعت المزاومة بينهما في إحداها . فالطاهي يفوق الطاهية ، ومبدع الأزياء يفوق مبدعها ، والطبيب المولد مقدّم على الطبيبة المولدة ، وكل ما نظمته النساء من الرثاء لا يوازن قصيدة من الرثاء الجيد في شعر الرجال . والمرأة تخالف الرجل ، ولا بد أن تخالفه على سنة الفطرة التي عمت الأحياء فإن سنة الفطرة لا ترمى إلى توحيد العمل ، بل إلى توزيعه وتنويعه ، ولا تجعل جنسين ليشركا في حقوق واحدة وواجبات واحدة ، بل تجعلها جنسين ليعتدلا في الحقوق كاختلافهما في الواجبات .

هذه هي الحقيقة الماثلة بين أعيننا ، وعلى أساسها ينبغي أن تنبئ المذاهب

والآراء .

أما الذين يضعون المذاهب والآراء ثم يفسرون الحقيقة على موافقتها فأولئك على باطل ، ولن تقوم للباطل قائمة في عالم الطبيعة .  
ومن أمثلة المذاهب التي تفسر الحقيقة على موافقتها مذهب الشيوعيين في التسوية الكاملة بين الرجل والمرأة . فهم يريدون أن يهدموا الأسرة ، لأن الأسرة في زعمهم أصل الاستغلال ، وأن الاستغلال قائم على الاختلاف بين حقوق الرجل وحقوق المرأة ، ولهذا يجب أن يبطل هذا الاختلاف وأن تنقر المساواة بين الرجال والنساء في جميع الأحوال وجميع الأعمال .  
وهذا تسخير للحقيقة في سبيل الرأي ، وهو وحده كفيل بالقضاء على المذهب الشيوعي واقتساره عاجلاً أو آجلاً على موافقة الحقيقة التي يريد هو أن يقتسرها على هواه .

\* \* \*

فليس الإنصاف إذن أن يتساوى الرجل والمرأة في جميع الحقوق والواجبات وهما مختلفان هذا الاختلاف الظاهر للعيان ، المائل للعلم والحس منذ كان الإنسان ، بل قبل أن يكون الإنسان حيث يختلف الذكر والأنثى في عالم الحيوان .

ولكن الإنصاف الذي يجتمع فيه حكم الفطرة وحكم الآداب الإنسانية هو أن تأخذ من الحقوق كفاء ما عليها من الواجبات ، وأن تعطى حقوقها وتسأل عن واجباتها بالمعروف ( ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ) لا بالإرهاق والإذلال فهناك تهذيب الإنسان إلى جانب حكم الفطرة ، وهما خير مناط لإنصاف الشرائع والآداب .

\* \* \*

وليس من الخيد عن سواء التفكير أن يستطرد الفكر هنا إلى سؤال لا بد أن  
يخطر على البال ، وهو السؤال عن تعدد الزوجات : أهو من الإنصاف ؟ أهو  
من الكرامة والمعروف ؟ أهو من سنة الفطرة وتهذيب الإنسان ؟  
واعتقادنا نحن أن المثل الأعلى للزواج هو الزواج بين رجل وامرأة يتحابان  
ويعتزجان بالجسم والروح ولا يفترقان مدى الحياة .  
ولكننا نعتقد مثل هذا الاعتقاد أن المثل الأعلى لم يخلق قط لتفرضه القوانين  
على جميع الناس .  
إنما المثل الأعلى هو الحالة النادرة التي تيسر كلما تيسر الكمال أو تيسرت  
مقاربة الكمال .

وليست هذه بالحالة التي تفرضها القوانين على كل رجل وكل امرأة من  
جميع مراتب التفكير والتهذيب .  
فإنما تفرض القوانين ما يستطيع بين عامة الرجال وعامة النساء ، وما تسمح  
به أخلاق الزوجين وضرورات المعيشة التي لها عليها سلطان مسموع كسلطان  
الأخلاق .

ولا حاجة إلى فرضها على الأمثلة النادرة بين صفوة الرجال وصفوة النساء ،  
لأن هذه الأمثلة النادرة في غنى عن تعليم القوانين .  
والإسلام لم يقل إن تعدد الزوجات هو المثل الأعلى .  
ولم يفرضه على كل مسلم ، ولم يحمله من كل مسلم ، ولم يخله من شرط  
عسير هو العدل في المعاملة وإن تعذر العدل في المحبة ، ولم يفعل إلا أنه وضع  
التشريع في موضعه الذي يحسب فيه حساب المثل النادر والمثل الشائع ، ولم  
تأت بعده شريعة حلت هذه المشكلة بغير الحرب منها أو المغالطة فيها ، كما هو

الواقع الملموس في الأمم التي تحظر تعدد الزوجات ولا تحظر المعيشة مع الخليلات ، أو معاملة النساء كمعاملة العجاوات .

وفي المجتمع الإنساني حالة يكثر فيها عدد النساء ويقل عدد الرجال ، ولم تستطع الحضارة التي ينعون باسمها تعدد الزوجات أن تمنع تلك الحالة أو تبطل عواقبها . فلا تزال في كل جيل نشهد حرباً من الحروب العالمية التي تنجلي عن ثلاثين أو أربعين مليوناً من الفتيات أو الأرامل بغير قرناء .

وقل ماشئت في تعدد الزوجات فهو خير من التبذل الوبيل ، أو من إعطاء المرأة محلاً في المصنع بديلاً من محلها في البيت والأسرة .

وقد ينطلق الهوس بالمساواة إلى أبعد من هذا المدى فيسأل سائل : وهل يجوز للمرأة تعدد الأزواج كما يجوز للرجل تعدد الزوجات ؟  
وجواب ذلك أنه بحكم الفطرة لا يجوز .

لأن الرجل يستطيع أن يؤدي واجب الأبوة مع تعدد زوجاته ، ولا يستطيع المرأة أن تؤدي واجب الأمومة لأربعة أزواج أو لزوجين اثنين .  
كذلك له هو من حق مراقبتها والسهر عليها أكثر من حقها هي في مراقبته والسهر عليه .

لأنها تستطيع أن تخدعه بولد ليس من لحمه ودمه ، أو تخدعه في أمس شعور به بعد شعوره بكيانه .

ولكنه هو لا يستطيع أن يخدعها بولد ليس من لحمها ودمها ، وأن يصيبها بمثل هذا المصاب الألم الذي ليس آلم منه ولا أفجع في نكبات النفوس .  
وهنا محل عادل للدرجة التي للرجال على النساء ، كالعادل في محل تلك الدرجة عند التفرد بحق تعدد الزوجات وعند التفرد بحقوق تخالف حقوق

النساء ، تبعاً للخلاف في التركيب والتكوين .

\* \* \*

على أن البحث في حرية الزوجة والبحث في حرية المرأة مسألتان اثنتان لا مسألة واحدة :

لأن الآراء على تناقضها تلتقي في مسألة حرية الزوجة عند ملتقى واحد وهو تقييدها بحقوق الزوج كائناً ما كان الرأي في قداسة الزواج . فالذى لا ينكر الخيانة ينكر السرقة والاعتصاب ، والذى لا يؤمن بالعاطفة الخالصة يؤمن بشروط القسمة بين الشريكين . ومما لا جدال فيه أن الزوج شركة لها شروطها ، وأهون ما يقال في تلك الشروط أنها كشروط الشركة في المال ، فلا يجوز للزوجة أن تحتل من حقوق شريكها ولا أن تسرق نصيبه المقسوم بينهما على السواء . وهنا الملتقى بين القائلين بالوفاء والقائلين بالمحافظة على حصة الشريك . ولكن المسألة التي ينطلق فيها الغلو إلى غاية مداه هي مسألة البحث في حرية المرأة على التعميم بمعزل عن علاقة البيت وعلاقة الزواج .

فن أدعياء الحرية في عصرنا هذا من يرى أن حرية المرأة التي لا زوج لها هي إباحة مطلقة لا يقيدها واجب من الواجبات ، وإن القيود الجنسية التي اصطلحت عليها الأمم منذ القدم إن هي إلا اعتساف من الأديان أو من الكهانات « الطوطمية » قبل الأديان ، ويعنون بالطوطمية تقديس بعض الأحياء واعتبارها سلفاً للقبيلة يضمها في نسب واحد ويحرم على أتباعه المزاوجة كما تحرم الآن بين الإخوة والمحارم .

وتماذى بعض هؤلاء فاستكثروا القيود الجنسية على الحيوانات الدنيا ، وزعموا أنها لا تنقيد بموسم للمزاوجة إلا لوفرة الثمرات في ذلك الموسم وامتلاء



الجسم فيه بفيض من الحيوية يدعوه إلى طلب الذرية . قالوا : وإذا توافر الطعام على طول العام للدواجن من الحيوانات نسيت قيود الموسم وطلبت المزاوجة أنى تيسرت لها من أيام العام .

وهذا كلام لايعنينا أن نخوض في تفاصيله وأن نتوسع في تفنيده ، ولكننا نلاحظ عليه عرضاً أن السر في موسم المزاوجة أعمق جداً من الطعام وأحوج إلى الفهم جداً من هذا النظر القصير .

وإلا فلماذا تتوافر الثمرات في ذلك الموسم ؟ ولماذا يكون من خصائص ذلك الموسم أن يزيد قوة التوالد في النبات ولا يكون من خصائصه أن يزيد قوة التوالد من باب أولى في عالم الحيوان ؟ ومابال الحيوانات التى تأكل الأحياء وتجدها طول السنة تجرى في موسم المزاوجة على سة الحيوانات التى تأكل النبات ؟ وما بال الأسماك في البحار تقصد إلى الأنهار القصية للمزاوجة خلال فترة واحدة وهى في موسم متشابه من الأطعمة طوال العام ؟

إن سر التوالد لأبعد جداً من أن يحده ذلك النظر القصير ، لأنه هو بعينه سر الحياة .

وأيّا كان القول في الاختلاف بين الدواجن والأوبد في موسم المزاوجة فالأمر الذى يتفقان فيه أن الحيوان لا يقارب الأنثى وهى حامل ولا يطلب المزاوجة للعبث والمجون .

فالحيوان نفسه لا ينطلق من جميع القيود في علاقاته الجنسية . ومن السخفف أن نرد قيود الأخلاق الجنسية في الإنسان إلى اعتساف الطوطمية والكهانة .

لأن الأخلاق كلها — جنسية أو غير جنسية — قائمة على ضبط النفس أو على

وجود الضوابط الأدبية في بنية الإنسان

والطعام - مثلاً - مباح لا يتعلق به عرض ولا شرف ولا تزييف نسب ولا اختلاس ذرية ، ولكن الإنسان الذي لا يضبط شهوته أمام إغراء الطعام حينما أصابه ، إنسان مهين ولو كان طعامه من كسب يديه .

وإنما كان ضبط النفس لازماً في الشئون الجنسية - لزومه في كل شهوة من الشهوات - لأنه قيمة أخلاقية يطلبها الرجل في المرأة وتطلبها المرأة في الرجل ، ويطلبانها معاً في الذرية التي ترث منها هذه الفضيلة .

وإذا نفر الرجل من المرأة التي تنطلق مع أهوائها وتتهافت على شهواتها فهو لا ينفر منها لأنها خالفت الدين أو خالفت الطوطمية كما يزعمون ، ولكنه ينفر منها فطرة لأنها مخلوق معيب في تكوينه سلب من الضوابط السليمة التي تناط بها جميع الأخلاق .

فالدين لم يعتسف هذه الضوابط اعتسافاً لغير علة ولغير مزية ، ولكنه شرعها وهي في أصول الفطرة القويمة ، لأنها مزية في أخلاق الفرد ومزية في أخلاق النوع ، وما كرامة نوع يعرف الإباحة ولا يعرف ضوابط الشهوات ! ترجع قيود الجنس إلى أصول الحياة ، ولا ترجع إلى اعتساف من دين أو شريعة

ولو لم تكن في تلك القيود مصلحة للفرد ولا للنوع كله لكانت فيها دلالة على قدرة ضابطة في النفس هي قوام كل طبيعة مهيأة للغلب في ميدان الحياة . وترجع قيود الجنس إلى مرجع آخر قريب من هذا المرجع في ينبوعه الأصل ، وهو أن العلاقة بين الذكر والأنثى هي علاقة بين شخصية وشخصية ، وليست علاقة بين جسدين أو عضوين . وآية ذلك هذا السياق

المخالد الذي تترقى به الأحياء جميعاً ، لأنه يوكل الانتخاب الجنسي بأكمل المحاسن وأندر الصفات ، ويجعل « الشخصية المتكاملة » هي الهدف الذي يتجه إليه ذلك السباق . وأصدق من أدعياء الحرية هؤلاء طبيعة المرأة التي لا تخدعها ، فإنها لتعلم من قرارة وجدانها أن طلاقها بخس لقيمتها ، إذا كان معنى الطلاق أن تسعى هي إلى الرجل ولا تتركه يسعى إليها ، ومن قبل المرأة في عالم الإنسان كانت الأنثى في عالم الحيوان جائزة للمنافسة والسباق ، ولم تخلق لها وسيلة واحدة من وسائل الاقتحام التي ميز بها الذكور .

وخلاصة ذلك كله أن حقوق المرأة لم تكن قط مسألة فرد ولا مسألة أمة أو مجتمع موقوت ، ولكنها كانت ولن تزال مسألة النوع الإنساني بأسره ، فلامتاص فيها من الضوابط التي تعبر عن مصلحة النوع وتتجاوز المصلحة العاجلة والغرض القريب .

ولهذا تصدق الأديان لأنها تنطق بلسان الفطرة السليمة ، وتكذب المذاهب التي تحسب أن ضوابط الجنس في المرأة والرجل من اعتساف الأديان ، لأن الإباحة التي تنادى بها هذه المذاهب تدل على جهل بالفطرة ، وهي تنادى نداءها باسم العلم والمعرفة الحديثة ، وهنا فلنحسب للقدم مزيتة الأولى إذ هو قدم الفطرة الباقية ، وهي أسبق إلى المعرفة الصادقة من كل حديث .



## فهرس

### صفحة

٥	..... المرأة العربية
١٦	..... المرأة المسلمة
٢٢	..... المرأة الخالدة
٣٢	..... عائشة
٤٥	..... زوج النبي
٦٧	..... حديث الإفك
٨٢	..... بعد النبي
٨٦	..... في السياسة العامة
١٠٤	..... حقوق المرأة

١٩٨٨ / ٧٧٧٩	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-٢٥٨٧-٨	الترقيم الدولي

١ / ٨٨ / ١٣٠

طبع بقطاع دار المعارف (ج.م.ع.)



## الصديقة بنت الصديق

في خلال المجتمع العربي الناشئ على الأصوات  
الأولى للإسلام نشأت السيدة عائشة وتفردت من  
بنات جنسها برعاية لم تشاركها فيها غيرها من  
الولائد . . . لقد تربت على النعمة ، وشبت على العزة  
والكرامة ، وتعلمت الكتابة التي لم يسم إليها إلا قلة  
من الرجال . . . إن عائشة تمثل المرأة المسلمة في أرفع  
مثلها ، وتمثلها في حقوقها ، وتمثلها في المثالية الكريمة  
للزوجة الكريمة ، أما « حديث الإفك » فكان له في  
هذا الكتاب شأن أي شأن . . .



To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)